****

**أصول التربية الإسلامية (5)**

مؤسسات التربية الإسلامية

**دراسة مقارنة بين مؤسسات التربية**

**الإسلامية ونظائرها في التربية الحديثة**

بقلم

أ. د. ماجد عرسان الكيلاني

بسم الله الرحمن الرحيم

# **الفصل الأول**

# **أهمية البحث في مؤسسات التربية الإسلامية**

لا تكون التربية الاسلامية فاعلة – نافعة- الا اذا جسدها في واقع الحياة مؤسسات أصيلة الغايات، صائبة الممارسات.

و-الأصالة- التي نعنيها هنا أن نعيد هذه المؤسسات الى اصالتها ونقائها كما وجه إليها " شرعة الرسالة " أي فلسفة التربية التي أشير لها عند قوله تعالى: " وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ".[[1]](#footnote-1) والتي هي عند العرب والمسلمين تتجسد في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

أما "الصواب " فموضوعه هو تجديد الفقه التربوي ومصطلحاته والأساليب والوسائل التي تستعملها هذه المؤسسات لتصبح قادرة على تلبية حاجات العصر ومواجهة تحدياته، والقاعدة في هذا التجديد تتمركز حول تحليل المخزون التاريخي والواقع الاجتماعي لهذه المؤسسات بغية التعرف على تكوين المؤسسات الأصيلة وبنيتها التي كانت في عصور التقدم والإزدهار والقوة، ثم التعرف على تلك التي اعتراها التشويه والعجز خلال فترات الجمود والضعف والتخلف.

وفي العادة تكون المؤسسات الأولى ( عصر النبوة والعصر الراشدي والصحابة والتابعين )حبيسة الأسفار التاريخية والأعمال العلمية والمخطوطات التي نشأت في عصور الإزدهار والقوة، ويحتاج الباحثون والمختصون الى التنقيب عنها ثم دراستها وتفعيلها وتحويلها إلى أنظمة تربوية فاعلة وتطبيقات حكيمة قادرة على إخراج الإنسان الجديد، المؤهل لاستئناف عملية البناء والإصلاح في ميادينها المختلفة، كذلك يحتاج الباحثون إلى تجديد هذه المؤسسات – في الغالب- كلما أبرزت.

أما النوع الثاني من المؤسسات التي تعود الى عصور التخلف والجمود والضعف فتكون متكدسة، جامدة في تراث الآباء وفي معتقدات عامة الناس وتقاليدهم وعاداتهم ونظم حياتهم الراكدة التي تسلمها من الآباء، ويكون المطلوب هو النظر في تاريخها وتحديد المحطة الزمنية التي شاهدت دخولها في مجرى تاريخ الامة وتحديد نقطة الانحراف اليها بغية الإنعتاق من " آصارها" اجتماعية، و" أغلالها" العقلية، وتفكيك مؤسساتها والتزكي من آثارها ومضاعفاتها.

ولعله من الواجب عند هذه النقطة أن أذكر بالجهد الطيب المبارك الذي قام به الاخ الشيخ علي عبد الله جيت بإسهامه الكبير في ترتيب ومراجعة الموضوعات التي يتضمنها كتابنا هذا كما قام بالطباعة الاولية التي جعلته جاهزاً، وفي الختام نسأل الله القبول وحسن المثوبة لنا جميعاً.

والله من وراء القصد.

# **الفصل الثاني**

# **الأطر العامة لمؤسسات التربية الإسلامية كما يوجه إليها فلسلفة التربية الإسلامية**

التوجيهات القرآنية والمؤسسات التربوية الإسلامية وتطبيقاتها والمدارس العامة التي ظهرت في الحضارة الإسلامية تقسم الى سبعة أنواع هي:

النوع الأول: مؤسسات التنشئة اجتماعية وينضوي تحتها كل من الأسرة والعشيرة والقبيلة التي وردت الاشارة اليها في آيات من القرآن الكريم وفي أحاديث نبوية.

والنوع الثاني: مؤسسات التربية والتعليم وينضوي تحتها كل من دور القرآن ( الكتاتيب) والمدارس والجامعات ومعاهد العلوم الطبيعية والطبية والاقتصادية والصناعية والمهن العملية وما يتفرع عنها من تطبيقات متجددة مستمرة النمو.

والنوع الثالث: مؤسسة المساجد ويمكن استلاهم معالمها من دارالأرقم في بداية الدعوة، وهي ثلاثة اقسام:

القسم الاول: المساجد العظام وتشمل المسجد الحرام في مكة والمسجد النبوي في المدينة المنورة والمسجد الأقصى في القدس

القسم الثاني: المساجد الجامعة وهي المساجد الكبرى المنتشرة في عواصم الأقطار الإسلامية مثل: الأزهر في القاهرة والأموي في دمشق والزيتونة في تونس، ولقد اتخذت هذا الإسم لانها كانت تجمع بين العبادة والعلم وتقام فيها صلاة الجمعة.

القسم الثالث: المساجد الفرعية المنتشرة في المدن والقرى والأرياف.

والنوع الرابع: مؤسسات التربية السياسية، وينضوي تحتها كلاً من: قوم الرسالة، وشعوب النصرة، والأمة المسلمة.

والنوع الخامس: مؤسسات الإدارة والأمن

والنوع السادس: مؤسسات التربية العسكرية

والنوع السابع: مؤسسة القضاء والحسبة

الفصل الثالث

مؤسسات التنشئة اجتماعية

تشمل هذه المؤسسات كل من الأسرة والعشيرة والقبيلة وفي ما يلي تفصيل كل مؤسسة منها:

1- الأسرة بمفهومها الإسلامي

معنى الأسرة - لغوياً - الدرع الحصينة. وأسرة الرجل عشيرته وأهل بيته.[[2]](#footnote-2) وهو اسم لم يرد له ذكر في القرآن الكريم، وإنما الذي ورد هو - أهل البيت – مثل قوله تعالى: "فقالت: هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم"[[3]](#footnote-3). وقوله: " رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد" (3)[[4]](#footnote-4).

ويلاحظ أن القرآن الكريم أطلق اسم ( زوج) على كلا عضوي الأسرة ولم يسم ( زوجة) ولكنه لم يطلق اسم ( الزوج ) على المرأة اذا لم يكن بينهما تكافؤ وتكامل في الفكر والإرادة والممارسة. فقال: " امرأة نوح" و" امرأة لوط " ولم يقل " زوج نوح " ولا " زوج لوط" لأن المرأتين خانتا الرسولين الكريمين وانضما الى قطيع العصاة. وقال " امرأة فرعون " ولم يقل " زوج فرعون" لإنها كانت مؤمنة استجابت لرسالة موسى عليه السلام، وفرعون كان عاصياً.

من نفس المنطلق خاطب الله سبحانه آدم عليه السلام بعبارة" اسكن أنت وزوجك الجنة " لان حواء كانت تماثل آدم وتتكامل معه فكراً وسلوكاً. وخاطب الرسول صلى الله عليه وسلم بأمثال قوله تعالى: " قل لإزواجك" و" وتبتغي مرضاة أزواجك " لأنهن ارتقين إلى مستوى المسئولية التي يقتضيها الزواج منه صلى الله عليه وسلم وحمل الرسالة معه.

ولقد استلهم الشاعر الإسلامي جلال الدين الرومي معنى (الزواج المتكافل) هذا حين كتب في ديوانه – المثنوي – فقال:

" إنك زوجي: والزوج لا بد لها أن تتفق مع زوجها في الصفاء حتى تجيئ الأمور وفق مصلحتهما.

والزوجان يجب أن يكون كل منهما على مثال الآخر. ألا فالتتأملي زوجين من الأحذية أو النعال، فلو أن واحداً من النعالين ضاق بقدمك فلا نفع لهذين النعلين عندك. وهل بين مصراعي الباب واحد صغير وآخر كبير؟ أم هل رأيت ذئبة اقترنت بأسد الغاب؟ وليس يستقيم فوق ظهر الجمال زوجان من الحقائب إحداهما صغير والأخرى كاملة الإتساع. إنني أسير بقلب قوي نحو القناعة، فلمذا تذهبين أنت إلى الشناعة!"[[5]](#footnote-5).

وعندما ندقق النظر في المزايا التي ميزت المرأة في نموذج الأسرة الوارد في القرآن الكريم نجد أنها تتلخص في أنها ( قوية- فاضلة). و( القوية) هي التي تلجم هواها وسلوكها بلجام " العقل" فلا تقدم على أمر إلا بعد النظر في صوابه وعواقبه و( الفاضلة) هي التي تلجم "إرادتها" وانفعالاتها وشهواتها بلجام ( الفضيلة) التي يدعو إليها " الشرع"، وهذا ما يوجه إليه قوله صلى الله عليه وسلم: " ليس الشديد بالصرعة، ولكن الشديد هو الذي يملك نفسه عند الغضب"[[6]](#footnote-6).

ولا تقتصر هذه الميزة على المرأة القرآنية، وإنما تنسحب على ( الرجل القرآني ) وهو ما عبرت عنه ابنة الرجل الصالح لوالدها وهي تصف موسى عليه السلام بقولها: " قالت يـأبت استئجره إن خير من استئجرت القوي الأمين"[[7]](#footnote-7)، حيث " القوي" تشير إلى صفة "القوة"، و" الأمين" إلى صفة الفضيلة.

إن أزمة المرأة المعاصرة هي أنها في الغالب أحد نموذجين: نموذج "القوية غير الفاضلة " كما هو الغالب على نخبة النساء في أميركا وأروبا. فهي – قوية – لانها تلجم هواهها بلجام الموضوعية والواقعية، ولكنها ( غير فاضلة) لأنها لا تقيد إرادتها بـ ( الشرع ) الذي يحدد لها الحلال والحرام والفضيلة والرذيلة.

ونموذج ( الفاضلة – الضعيفة ) كما هو الغالب على النساء في المجتمعات العربية والشرقية.

وإلى جانب النموذجين توجد قطعان من النساء اللاتي يجسدن نموذج ( المستضعفة – غير الفاضلة) والذي ينتشر في اماكن الخدمة وأسواق العولمة التي تستغل أجسادهن للتسويق ورفع شهية الإستهلاك.

تكوين الأسرة المسلمة في القرآن والسنة

تتكون الاسرة – حسب التصور الاسلامي – من ثلاثة أجيال:

جيل الجد والجدة وجيل أب الأطفال وأمهم وجيل الأطفال الاحفاد والى ذلك يشير قوله تعالى: " والله جعل لكم من انفسكم ازواجاً وجعل لكم من ازواجكم بنين وحفدة " ( سورة النحل آية 72).

والحكمة من هذا التكوين ان عمل الاجيال الثلاثة يتكامل ويدعم بعضه بعضاً في انجاح القوامة الاسرية والعيش في ضلالها.

فالجدان مثلاً يقدمان للأب والام المشورة والخبرة والدعم المعنوي والشعور بالقبول ويقدمان للأطفال الحب والدفء والرحمة، أما الأب والام فيقدمان الإيواء والنصرة لكل من الجدين والاطفال، ولذلك يشيع في الاسرة السكن والمودة ويعود الأب من عمله ليجد والدين يرحبان به ويستفسران عنه ويناقشان هموم الاسرة، ودورهما بمجابهة الحياة.

وإذا قارنا هذا المفهوم الإسلامي للأسرة ووظائفها بما قدمه الرئيس الأمريكي وليم كلنتون عام 2004 م الى المؤتمر العالمي للتنمية والذي اقترح فيه عدة اشياء تتعلق بالاسرة وما يجب عليها أن تتكيف ولا تتقيد بتقاليد الاديان وإنما محورها الاساسي أن يقوم كل عضو فيها بدوره في التنمية الاقتصادية وذلك حسب رأيه الذي طره امام المؤتمر وقاومته بشدة كل من المملكة العربية السعودية وايران - فإن الاسرة يجب ان تتكون في الحقبة الحاضرة من التاريخ من أربعة أشكال:

الشكل الاول: أسرة تتكون من رجل وامرأة ويتزوجان حسب القانون

الشكل الثاني: أسرة تتكون من رجل وأطفال دون وجود امرأة. بحيث يتبنى عدد من الاطفال حسب ما يرى

الشكل الثالث: اسرة تتكون من امراة وعدد من الاطفال تنجبهم من خلال مضاجعتها للرجال.

الشكل الرابع: اسرة تتكون من رجل ورجل أو امراة وامراة وهما المعروفين بالشاذين جنسياً وكثير من هذه الاسر موجودة في امريكا واوروبا، قائماً في عالم الواقع.

ولقد كان لهؤلاء تأثير كبير في انتخابات الرئاسة في الولايات المتحدة في نجاح المرشح الجمهوري في الرئاسة.

- ( المؤتمر العالمي للتنمية البشرية 2004م)

وفي توجيه آخر طلب القرآن من رب الاسرة ان يتعامل مع الجيل الاول أو الوالدين بالأخلاق المستمدة من قمة الاحسان فقال " وقضى ربك الا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا " (سورة الاسراء آية 23 )، الامر الذي يبين بوضوح أن الوالدين هما جزء اصيل في التكوين الاسري والمفهوم الاسلامي للاسرة وليس مجرد عواجيز تحسن اليهم دوائر الشؤون اجتماعية بالطعام والشراب وينتظران الموت وانما هي الاستفادة العلمية من خبرات جيل عاش الحياة عملياً واستنفذ طاقاته في خضمها. كما انه جعل للجيل الثالث مكانة راقية فتجعلهما يمضيان في العمل ويصبحان قدوة للجيل اللاحق.

وينجب اطفالاً كفراخ العصافير يستقبلونه كاستقبال طيور أو فراخ السنونو التي كنا نشاهدها في بيوتنا، بعكس الأسر التي حرمت من الجدين وارسلت أبنائها لرياض الاطفال أو الحضانة فإن النتائج السيئة لبيئة العمل تصحبهم الى البيت وهو شعور الجوع والتعب والحزن كما يستقبل زوجة قد عادت الى البيت تجعله يشعر بأن القوامة قد انتقلت منه الى رب العمل وهذا من شانه ان يثير الصراع بين الاسره ويحركه ويتبادلون الاتهامات، وهذا حال الكثير من الاسر.

وقد يتبادر للذهن ان دور الحضانة ورياض الاطفال تسد مسد الاب والام العاملين.

لقد عالج هذه الحالة كثيراً من المختصين مثل المراجعون - صلى الله عليه وسلم -evisionists الذين ما زالوا ينتشرون في الجامعات الامريكية والبرازيل من أمثال Gintis وWbeweles وPeol F- صلى الله عليه وسلم -ea- صلى الله عليه وسلم - والمدرسة النفسية ورئيسها أبرهام ماسلو Ab- صلى الله عليه وسلم -aham masloo، فقد أجمع هؤلاء على أن عمل الحضانة ورياض الاطفال مكمل لعمل الرأسمالية في إدارة الاقصاد الراسمالي أي أنهم يهيئوا للعمل لا للعيش في أسرة، فصفارة الانذار التي تطلق في الصبح لجمع الاطفال والطابور الذي يصطفون فيه والعلامات التي يأخذونها والامتحانات التي تجرى كل هذه قضايا يقابلها العمال وصفارة الانذار وطوابير العمال واسلوب دفع الراتب وكل هذا يتروض عليه الطفل ويصبح جاهزاً لقبوله- العمل - وعدم رفض المظالم الجارية فيه.

وحين يحرم الاطفال من هذه العناصر الرئيسة في الاسرة فإنهم لا يتسلمون مخزون الحب الذي يجعلهم أبناء بررة ويرحمون على والديهم ويتلاحمون مع الاسرة وعنده تصبح العلاقة مادية لا إحساس فيها ولا كرامة ويصبح العيش في الاسرة ضنك وصراعاً وهذا ما يشير اليه قوله تعالى: ((وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى))[[8]](#footnote-8).

نموذج المرأة الصحابية:

ولقد جسدت المرأة الصحابية في عصر الرسالة النموذج القرآني خير تجسيد، فكانت ( قوية ) تمام القوة في حمل الرسالة الإسلامية في بيتها ومجتمعها، ( فاضلة ) تمام الفضل في علاقاتها اجتماعية ووظيفتها الأسرية. فكانت سباقة في إسلامها وفي جهادها.

فأول مسلم كان امراة هي خديجة بنت خويلد رضي الله عنها

وأول شهيد في الإسلام كان امرأة هي سمية بنت خباط أم عمار بن ياسر

وأول عالم في مدرسة النبوة كان امرأة هي عائشة رضي الله عنها

وأول منظم لهجرة النبي صلى الله عليه وسلم كان امرأة هي أسماء بنت أبي بكر الصديق

وأول أمين على نسخة القرآن كان امرأة هي حفصة بنت عمر التي حفظت نسخة القرآن حتى زمن خلافة عثمان حين دفعتها إليه لينسخ عنها نسخاً للإمصار.

وأول مسلم من فارس كان امرأة كما أخبر سلمان الفارسي رضي الله عنه[[9]](#footnote-9).

وفي الوقت الذي كان أبو جهل وعقبة بن أبي معيط، وأبو سفيان وأبو لهب يقودون العدوان على الإسلام والمسلمين في الجزيرة العربية، فكانت بناتهم يستأجرن الرواحل والأدلاء ثم يخرجن مهاجرات الى المدينة والحبشة وهن لم يتجاوزن العشرين من العمر.

تطبيقات تاريخية لنموذج المرأة المسلمة

واستمرت المرأة المسلمة سباقة متميزة في حمل مسئولياتها، جريئة في قول الحق وإتيانه لا يقف أمام إرادتها سطوة خليفة أو نفوذ مسئول إلا ما كان من خشيتها لله سبحانه وتعالى، وكانت ( فاضلة ) في التزامها بالتوجيهات الإلهية والأخلاق التي يوجه إليها القرآن والسنة، تسبغ السعادة والسكن على بيتها وتؤدي لزوجها وبيتها حق الله دون تردد أو حساب.

وفي كل عصر أحكمت حركات التجديد والإصلاح إعداد المرأة المسلمة كانت تخرج نماذج تتصف بـ ( القوة والفضل ).

ولقد رأينا في كتاب " هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس " كيف أن الإعداد التربوي أدى إلى بروز شخصيات نسائية تتصف بـ ( القوة والفضل ) من أمثال السيدة خاصة العلماء بنت المبارك والسيدة شمس الضحى، وفاطمة الجوزدانية، وشهدة بنت أبي نصر، ثم كيف استمر تلميذاتهن الى جانب رجال جيل الجهاد كما فعلت زمرد خاتون زوج عماد الدين زنكي، والسيدة عصمت الدين خاتون زوج نور الدين زنكي، والسيدة فاطمة بنت سعد الخير زوج علي بن نجا، وأمثالهن من جيل الجهاد، ويقيني ان جيل نور الدين زنكي وصلاح الدين ما كان بقدرته تحقيق المنجزات التي قام بها لو لم تخرج مدارس الإصلاح ذلك الجيل من النساء اللاتي ارتقين الى مستوى المسئولية والوعي بالتحديات المعاصرة. ترى كم كانت ستكون الخسارة ومنافذ الضعف وإهدار المقدرات لو كان جيل النساء المذكور من الجاهلات المستضعفات أو من المترفات المترهلات او من العابثات المستهلكات.

وحينما دخلت الامة الإسلامية في عصور الجمود والضعف لم تعد نظم التربية فيها تخرج النموذج القرآني للمرأة: نموذج ( القوية الفاضلة ) إلا ما ندر. ثم تلا ذلك وقوع المجتمعات والأقطار الإسلامية تحت تأثير الثقافات الغازية وفي ركب الاستعمار ومؤسسات العولمة، وتخلي الامة عن تربية أبنائها وبناتها وإرسالهم الى المدارس والجامعات الأجنبية سواء منها التي انشئت في ديار الاسلام أو تلك القائمة في مواطنها الأصلية.

ونتيجة لذلك أصبح نموذج المرأة السائد ينقسم الى قسمين:

الاول: نموذج الأسرة التقليدية وهو نموذج احتلت فيه المراة المسلمة مستوى ( الفاضلة- الضعيفة ) سمتها العامة الاغتراب، مغترب في ماضي الريف والبادية غائب عن حاجات الحاضر وتحدياته التربوية والثقافية واجتماعية والتكنولوجية والعلاقة فيها – علاقة عامودية – تقوم على رجل يهيمن هيمنة قوية بسبب ذكوريته وامرأة مستضعفة بسبب أنوثتها.

وأساس التوجيه في هذه الأسرة أوامر غير مفهومة ولا مبررة، ولذلك يتحين الابناء الفرص للإنفتاق من " أغلالها " و" آصارها " الصارمة.

وهذا النموذج التقليدي في انحسار دائم أمام وسائل الاتصال والفضائيات الحديثة، ومؤسسات التحديث التربوي والثقافي والاجتماعي الموجهة بالتأثيرات الأجنبية والتي تمزقها وتحيلها الى أكداس من العمالة والخدمة الرخيصة في أسواق الاستهلاك التي يقيمها وكلاء الشركات العالمية وسياسات العولمة في الأقطار العربية والإسلامية.

النموذج الثاني: نموذج الأسرة الغربية – الحديثة – وهو نموذج تجاري وفد في ركب الاستعمار ومارس التبشير وأفرزته مؤسسات التربية والتعليم، والناشئون بنظم التربية الغربية في هذا النموذج، فقد البيت فيه وظائفه العربية – الاسلامية – لصالح مكان العمل ويتجاذب المرأة فيه علاقتان: علاقة افقية مضطربة مع زوج فقد قوامته بسبب انحسار انفاقه ومكانته. وعلاقة عامودية مع رئيس عمل يتحكم بمصير المرأة الوظيفي وراتبها المالي وهذه علاقة لم تحرر المرأة – كما يزعمون – وإنما أجبرتها على تحويل طاعتها وزينتها وحسن تبعلها الى مكان العمل حيث يتمتع رئيس العمل أو صاحبه بالغالب – وأحياناً بجميع – ما كان يتمتع به زوج البيت، بينما لم يبقى لزوج البيت إلا الكسل والعجر والرثاثة والسأم والعبوس والصراخ والمزاج المتبرم، ولم يبق للبنين والبنات إلا دور الحضانة ورياض الأطفال التي تنشئهم على ثقافة القطيع التي تهيؤهم لسوق العمل وبسبب ذلك يتقرر تماسك الأسرة الحديثة طبقاً لمحصلة التجاذب المتضاد بين متطلبات رئيس العمل من ناحية ومتطلبات زوج البيت من ناحية أخرى ولقد أدرك الروائي – فيث بالدوين Faith Baldwin - طبيعة هذا التنافر والإضطراب الذي أصاب الأسرة الحديثة فكتب عام 1929م روايته زوجة المكتب The office Wife والتي أعيد طبعها عام 1993م.

وزاد في تمزق هذا النموذج من الأسرة التأثير السلبي الذي أحدثته – وما زالت تحدثه – قنبلتان مزقت هذه الأسرة أيما تمزق. القنبلة الأولى فكرة قيام علاقة الزوجين على مطالبة كل منها بحقوقه وهذه فكرة ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب لإنها جعلت كلاً من الرجل والمراة لا يفكر إلا بما ياخذ، بعكس فكرة المسئولية التي جاء بها الإسلام التي جعلت وتجعل كلاً منهما يفكر بما يعطي، والأخذ في الحقوق يتحول إلى جشع والجشع يقود الى الصراع والإختلاف والشقاق والتفكك، بينما المسؤلية تؤدي الى تبادل العطاء والتبادل يقود الى المودة وتوثيق الروابط واستمرارية الحياة الاسرية.

وأما القنبلة الثانية التي فجرت الأسرة فهي فكرة المساواة بين الرجل والمرأة وهي فكرة لا وجود لها في واقع الحياة الأسرية وغير الأسرية، ولا توجه إليها التعاليم الدينية ولا الفلسلفات الدنيوية العلمانية، فالأديان جاءت بالدرجية: أي أن الله جعل الناس بعضهم فوق بعض درجات ليسألهم عن أمانة كل درجة، والفلسفات العلمانية قررت الطبقية في مكان العمل والمجتمع، والمطلوب أن ينظم العدل او القسط علاقات أصحاب الدرجات أو الطبقات، والأسرة بحاجة الى فكرتي المسئولية والعدل بدل فكرتي الحقوق والمساواة.

وكلا النموذجين السابقين يختلفان عن النموذج القرآني لبيت الزوجية المسلم الذي هو ( اسرة إنسانية ) وظيفتها الأساسية إحكام تنشئة الإنسان وصيانة انسانيته من الإنتقاص.

لذلك تحتاج حركات الإصلاح أن تعيد النظر في استراتيجيتها المتعلقة بنماذج الأسرة القائمة في الأقطار العربية والإسلامية، وأن تخطط لإخراج نموذج انساني جديد من قبل مؤسسات تربوية جديدة تؤهل الرجل والمرأة ليكونا ( الزوجين ) متماثلين في مستوى المسئولية وتليبية الحاجات ومواجهة التحديات.

الإحتشام والسلوك: رسالة عالمية وعطاء حضاري

أهمية الإحتشام والسلوك:

للوقوف على أهمية هذا التوجيه وثماره المؤملة لا بد من الوقوف على أمرين هما: الأول الإحاطة بأهمية الاحتشام والسلوك في المنابع الأصلية لقيم هذه الأمة، والثاني التعرف على ما آلت إليه ممارسات عدم الاحتشام في المجتمعات المعاصرة، لإن منهج البحث الذي يوجهنا القرآن لاستعماله ونحن نحلل المواقف والأوضاع اجتماعية هو أن ننظر أولاً في توجيهات الله تعالى لنتبين مدى استجابة هذه المواقف هذه المواقف والأوضاع لهذه التوجيهات، ثم ننظر بعد ذلك في نتائج التطبيق وعواقب الممارسات الإنسانية لنتبين الحال الذي آلت إليه السياسات والأوضاع المذكورة.

وهذا منهج في البحث يوجه إليه قوله تعالى: " سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق " ( فصلت 53)، أي سنريهم صدق آياتنا التي في الكتاب في آفاق الكون الطبيعي وفي عواقب الممارسات اجتماعية والحضارية التي يمارسونها انفسهم.

ثقافة الاحتشام والسلوك في المنابع الأصلية للقيم الإسلامية

أما عن الأمر الاول وهو الوقوف على أهمية " الاحتشام والسلوك " في المنابع الأصيلة للقيم الاسلامية، فإن تدبر ما جاء من آيات حول " ثقافة الاحتشام " وما يقابلها من " ثقافة السوء والعري" يرينا أن اول فضيلة استهدفها الشيطان في أبوي البشر آدم وحواء عليهما السلام هي فضيلة " الاحتشام "، وأن أول مضاعفات نسيان آدم لتذكير الله في مطعوماته وماكله كان العري وعدم الاحتشام.

1. استمرار جدلية الصراع بين " ثقافة الاحتشام "، و" ثقافة السوء والعري": والقرآن الكريم لا يعرض قصة آدم باعتبارها حادثة فردية تخص آدم وزوجه وإنما يستمر السياق القرآني ليذكر ذريتهما بأن حوادث القصة عدوان شيطاني وضعف إنساني سوف يتكرر كلما غفل الناس عن "ثقافة الاحتشام" وشاعت بينهما " ثقافة السوء " وما ينتج عنها من تطبيقات تقوض الحضارات وتنتهي الى تدمير المجتمعات. والاحتشام الذي يذكر به القرآن هو احتشام فكري، واحتشام نفسي، واحتشام جسدي،. كما أن "ثقافة السوء" التي يحذر منها القرآن هي " سوء فكري وسوء نفسي وسوء جسدي لأن السلوك الذي ينبع من ثقافة الاحتشام يولد نتيجة التزاوج في داخل الانسان بين فكرة المحتشم ونفسه المحتشمة، والسلوك الذي ينبع من " ثقافة السوء" يولد نتيجة السفاح الذي يعقده الشيطان داخل الانسان بين فكره الضال وإرادته المولعة بالشهوات المحرمة. قال تعالى: " قَالَ اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ يا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىَ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونََا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ " ( الاعراف 24-27). وتستمر الآيات التي تتلو مباشرة لتروي أنه حين يشيع عدم الاحتشام ويعتاد الناس على ثقافة السوء وتتنزل هذه الثقافة من جيل الى جيل فان المجتمعات الانسانية تدرجها في عداد معتقداتها الدينية، وأخلاقها اجتماعية، وممارساتها السياسية والإدارية وموروثاتها الثقافية والفنية والادبية. " وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ

فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ " ( الاعراف 28-30)

ب- آثار ثقافة " السوء والعري " في الحضارات والمجتمعات: والحقيقة ان تاريخ الإنسان وحاضره على الأرض يبرهنان صحة هذا التوجيه وصدقه، ففي فترة ما نصبت المجتمعات البشرية أصناماً لما أسمته – آلهة الجمال – ونحتت لهذه الإلهة تماثيل عارية لنساء جميلات، وفي فترة أخرى صنعت مجتمعات أخرى من " سوأة الإنسان " تماثيل مقدسة، واليوم تعرض أجساد الفتيات عارية وتقام لها مسابقات الجمال. ومنذ سنوات بثت إحدى محطات التلفزة الأمريكية صورة وخبراً رأيته بنفسي لمذهب كنسي جديد يدعو أتباعه للصلاة وهم عراة تحت شعار أن الإنسان ولد عارياً وعليه أن يعبد الله عارياً كما ولد. كذلك أثبت تاريخ الإنسانية أنه حين تغيب هذه المعبودات والضلالات غير المحتشمة فإن بيئة الاحتشام تشيع وأنبل مشاعر الحب والمودة تولد، ويشيع الزواج النظيف والأدب الرفيع والفن الرفيع والأذواق الرفيعة والسياسات الرفيعة والادارات الرفيعة والعلاقات الانسانية الرفيعة أما حين يشيع العري وينتفي الاحتشام فإن السوء والفاحشة يوجهان سلوك الانشان ويسقط الرجل والمرأة ضحية الشهوات الهابطة المؤدية إلى الشذوذ والانحراف المفضيان الى امتهان إنسانية الانسان وانتشار تجارات الرقيق الأبيض والأدب الرخيص والفن الرخيص والسياسات والادارات غير المحتشمة والعلاقات الانسانية الهابطة، وتمضي الآيات القرآنية لتفصل تفصيلاً دقيقاً عن تطبيقات ثقافة السوء وعدم الاحتشام وما جلبته على المجتمعات التي مارستها في حياته السياسية والادارية واجتماعية والثقافية والفنية وتورد القصص في هذه التطبيقات الخاطئة من امثال قوم لوط وقوم عاد وقوم شعيب وبيني اسرائيل وغيرهم وكيف انتهت بهم ثقافات عدم الاحتشام بأن حقت عليهم دائرة السووء وغضب الله عليهم ولعنهم بما كانوا يفسقون. ولقد اوزجز صلى الله عليه وسلم الآثار السئية لثقافة السوء وعدم الاحتشام عند قوله: " إن مما أدرك الناس من كلام النبوة إذا لم تستحي فاصنع ما شئت ". كذلك تتكرر الدعوة في القرى من الكريم للسير في الارض والتنقيب في آثار الحضارات والمجتمعات التي مضت لنتبين عاقبة الذين ظلموا أنفسهم وكيف أن ثقافات عدم الاحتشام انتهت بهم إلى مصارعهم التي لم يحل دونها أنهم كانوا اشد قوة وأنهم عمروا الارض أكثر مما عمرناها فما أغنت عنهم حضاراتهم ولا منعت المصير الذي انتهوا إليه.

جـ - مؤسسة العشيرة:

وهم أقرب الأقرببين وهذا ما عناه قوله تعالى: " وأنذر عشيرتك الاقربين ".

قد يفاجئ القارئ من إدراج هذه المؤسسة ضمن مؤسسات التنشئة اجتماعية. والواقع أنني أعترف بأني لم أستطع الغوص في تكوين كل من العشيرة والقبيلة وفي أثرهما في التنشئة اجتماعية الا بعد أن عايشتهما عشرات السنين بداتها بالتأذي من عدوان عصبيات العشائر والقبائل في قريتي التي ولدت فيها وقضيت طرفاً من طفولتي في حاراتها، وتجرعت غصص الألم من الإستغلال الاستعماري لهذه العصبيات وهذه خبرة حيااتية أحدثت في نفسي – في تلك الفترة – إحساساً سلبياً عميقاً وصورة قبيحة لهاتين المؤسستين جعلتني من أشد المحاربين لهما والداعين الى تدميرهما.

ولكن حين اتسعت لدي مساحة الشهود الاجتماعي للتجمعات البشرية واكتسبت مهارات البحث العلمي في دراسة هذه الظواهر سواء تلك التي هدمت هاتين المؤسستين – كما في الغرب – او تلك التي أبقت عليهما بعد أن زكت كلا منها من آثار العصبية وأرجعتهما الى فطرتهما – كما في العهد النبوي والراشدي – وتلك التي ما زالت تحتفظ بهما خليطاً متنافراً من الحسن والسيئ – كما هو في حاضر المجتماعات العربية – وتعمقت خبراتي بسلوك أفراد العشائر والقبائل ومنابعه ومساراته.

بشد النظر في الطرح القرآني الكريم أن كلاً من العشيرة والقبيلة والشعب " جَعْل " – أي تنظيم – إلهي يقوم على روابط الدم والعقيدة ولقد بدأ منذ أصبح لآدم وحواء ذرية قامت بينها علاقة اجتماعية واقتصادية وسياسية ثم اتسعت دوائر هذه العلاقات وتطورت محتوياتها إيجاباً وسلباً عبر الأزمنة والامكنة.

هذا " الجعل " – أو التنظيم الإلهي – سنة إلهية شاملة لجميع " العوالم " التي خلقها الله سبحانه وتعالى، ونحن نشهد هذه السُنة في عوالم الجماد والنبات والحيوان والإنسان، لكنها في الإنسان تقوم على أصلين: أصل عقدي، وأصل دموي.

فالبناء - مثلاً في الجماد – تتكامل فيه الأعمدة والجدران والسقف والأبواب والشبابيك لتكون المأوى الذي تسكن المخلوقات الحية فيه.

وفي الحيوان يتكامل الرأس والأطراف الخارجية والغدد الداخلية كالمعدة والقلب لتوفير الحياة وأداء الوظائف.

وفي الإنسان يتكامل الرأس والأيدي والأرجل والأجهزة الداخلية كالجهاز الهضمي والجهاز التنفسي والقلب لبقاء حياة الانسان وتدبير شؤونه.

وفي كل دولة يقيمها الانسان تتكامل الوزارات والدوائر والأقسام والجيوش وفرق البوليس لإنجاز المشروعات وبناء الحضارات.

نفس السنة الإلهية في الحياة اجتماعية تتكامل الأسر والعشائر والقبائل والشعوب لتكوين الأمة المسلمة وحمل رسالتها في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: " يا ايها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير"[[10]](#footnote-10).

ومعنى ( لتعارفوا) ليسهل معرفة بعضكم بعضاً، معرفة تؤدي الى الالفة والتعاون وهذا ما يوجه إليه قوله صلى الله عليه وسلم: " الأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها إئتلف، وما تنافر منها اختلف"[[11]](#footnote-11).

و ( العشيرة ) " جعل " إلهي تربوي يلتف الناشئة إليه بعد أن يتخطوا مرحلة " الطفولة " الى " الصبا " ويبدأ الواحد منهم المشي على الأقدام خارج – بيت الوالدين – ويبدأ شبكة علاقات اجتماعيةأوسع من دائرة الأسرة: شبكة توسع دائرة التعامل لديه بمقدار القطر والمحيط الذي ترسمه خطاه بعيداً عن محور بيت الوالدين وهي دائرة تشمل أقرب الأقارب من أسر الأعمام والعمات، والأخوال والخالات، والجدود والجدات، والأقارب والمجاورين.

وحين تسترشد " العشيرة" بالتوجيهات الاسلامية يسود فيها التراحم والتواصل وتبادل العطاء، وتمد الناشئة بمقادير أخرى من الحب والحنو والرعاية التي تعزز في ضميره حسن الظن بالبيئة المحيطة وتلبي حاجته بالأمن والحب والإنتماء وتمنحه مزيداً من الثقة بالإنسان وحب الخير، وبسبب هذا العطاء العشائري أعطى الله سبحانه الرباط العشائري الأفضلية في الأولوية والرعاية فقال: " وأولوا الأرحام بعضهم اولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين "[[12]](#footnote-12).

وبسبب هذا الرباط العشائري أمر الله سبحانه رسوله أن يبدأ دعوته بعشيرته فقال: " وأنذر عشيرتك الأقربين "[[13]](#footnote-13).

ولكن حين تستعصي العشيرة على الارشاد بالتوجيهات الربانية وترتكس في حمأة العصبية وتنقاد لأهواء الآبائية فقد جاء التحذير شديداً والوعيد مرعباً من آثارها في الدنيا والآخرة.

- " قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين"[[14]](#footnote-14).

- " لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حآد الله ورسوله، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ".[[15]](#footnote-15)

2- مؤسسة القبيلة:

أما " القبيلة " فهي أيضاً " جعل" إلهي يدلف إليه الناشئ بعد أن يتخطّى مرحلة " الصبا" إلى " الشباب ". ففي هذه " القبيلة" يبدأ الصبي شبكة علاقات اجتماعية وسياسية جديدة في دائرة أوسع من دائرة " العشيرة" وتقوم على " التعارف" بين القبائل والتسابق في تقوى الله وكريم الشمائل والأخلاق. " وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم "[[16]](#footnote-16).

و" التعارف" المشار إليه لا يتحقق إلا بـ " التمايز" – أي حين تتميز كل قبيلة عن القبائل الأخرى في نسبها واسمها وفي تطبيقها لمنظومة القيم والعادات والتقاليد والأعراف المنبثقة عن مفهوم " التعارف" المشار إليه في الآيه التي مرت أعلاه.

والتي تلخص بالقول الى أن الهدف الكبير لهذا التعارف هو تعاون هذه القبائل على ثقافة " التعاون على البر والتقوى" وأكرمها هي أكثرها إتقاء من مخالفة هذه الثقافة.

واكتساب هذه القيم وتطبيقاتها المتراحمة – المتعاونة على البر والتقوى في – دائرة – القبيلة – أمر حض عليه الرسول صلى الله عليه وسلم وحرص على تطبيقه. من ذلك قوله: " تعلموا من أنسابكم ما تعلموا به ارحامكم". وهو شبيه بمهارات ( المعلم – الطالب ) وقيمه التي تنميها برامج إعداد المعلمين في الوقت الحاضر حين يطلب من ( الطالب- المعلم ) أن يتدرب على مهارات التدريس وقيمه من خلال الحصول على مؤهل تربوي قبل ممارسة مهنة التعليم في المدارس.

وهذا النوع من التنشئة اجتماعية كفيل بأن يجنب الشباب مضاعفات الاغتراب والمراهقة بعقدها النفسية وعللها الجسدية واجتماعية، ويؤدي الى نضج الهوية والانتماء ومنظومة القيم وتوفير فرص ممارستها وتطبيقها.

أهمية القبيلة

أما أهمية الدور الذي تقوم ب العشيرة والقبيلة فإنه يمكن أن نلخصه في النقاط التالية:

1- تنمية الولاء والانتماء حتى مرحلة النضج وبذلك يتجنب الناشئ الحساسية التي تثور في نفسه ازاء مشكلات الانتماء والهوية ومشكلات المراهقة التي تصيب الطالب في المجتمعات الأوروبية والامريكية أي أنه يتجنب مشكلات المراهقة النفسية والجسدية وغيرها. ويدخل عالم الرجولة بسهولة لما يجده من رعاية الاقرباء ومساعدتهم.

2- التكافل الاجتماعي – القائم على صلة الرحم – بمفهومه الاسلامي فكانت كل قبيلة تكفل فقراءها والأرامل واليتامى والمرضى والمطلقات، وتحمي حرماتهم من الأذى وتحول دون استغلال الضعيفات والضعفاء في تجارة الأجساد وأنسانية الإنسان.

ولقد تبارت القبائل المنضبطة بتوجيهات الاسلام في رعاية أيتامها وصنعت منهم رجالاً أثروا في مصائر أمتهم.

ولبقاء مؤسسات الاسرة والعشيرة والقبيلة قوية تفرز آثارها القوية كان التوجيه التربوي في الاسلام يعمل على تنمية الفضائل التي تقوي روابط هذه المؤسسات وهنا ندرك الاهمية القسوى للموقف الذي اتخذته التربية الاسلامية من الزنا والفاحشة فهذه وامثالها تفسد نقاء هذه المؤسسات لذلك تتعطل آثارها الايجابية في الافراد والجماعات.

أثر التنظيم القبلي في قوة الدول وضعفها، ففي التاريخ الاسلامي قامت الدول الاسلامية على ما أسماه ابن خلدون " قوة العصبية القبلية " وهنا لا بد من نقد ابن خلدون في هذا التعميم الذي لم يميز بين القبيلة والعصبية القبلية، فالأول " القبيلة " كما قلنا تنظيم إسلامي أما " العصبية القبلية " فهي مرض كان يصيب القبائل التي قامت عليها الدول فيحولها الى عوامل هدم بعد أن كانت عوامل بناء

3- وأخيراً لا بد من ملاحظة أثر القبيلة في المجتمعات العربية الحديثة، فالقبائل فيها اسهمت بشكل واضح في الحفاظ على القوة العسكرية في هذه الأقطار وإن كان البعض قد حولها الى عصبيات استثمرها بعض الافراد والهيئات الحزبية والطائفية حين قوبلت تربية هذه القبائل وبناء ثقافاتها على الاثم والعدوان بدل البر والتقوى

ولقد تجسدت تطبيقات هذه " القبيلة" المتراحمة في تنظيم الجيوش الاسلامية في صدر الاسلام حيث كانت تتكون من القبائل العربية المشبعة بـ" ثقافة التعاون على البر والتقوى" والنفور من " ثقافة الإثم والعداون" وإذا صعب عليهم النصر تنادوا أن " تمايزوا" – أي لتتميز كل قبيلة عن غيرها- وتتمايز معها على التضحية والجهاد وأصواتهم تردد أن لا يؤتى الضعف من قبل قبيلتهم.

كذلك تجسدت تطبيقات هذه القبيلة المتراحمة في تخطيط المدن والقرى الاسلامية حيث كان يبنى في وسطها – المسجد الجامع—وبجواره دار الامارة، وحولهما خطط – أي قطع كبيرة من الأرض يخصص كل قبيلة خطة منها.

وجميع هذه الخطط ينحدر منها شوارع تتلاقى في ساحة المسجد لتجتمع كلمة القبائل على ثقافة " وتعاونوا على البر والتقوى".

وفي هذه الخطط أصبحت تنشئة الصبيان مسئولية القبيلة مجتمعه، ويكفي أن نسترجع صورة الصبي الذي كان ينشأ في أحياء مدننا وقرانا في بيئة مشبعة بالمحبة والأمن والسلامة، فإذا درج في شوارعنا تبادلته أحضان الجد والجدة، أو العم والعمة، أو الخال والخالة، وإذا عثر وبكى انتشلوه وقبلوه وهدأ وأمن روعه ثم ملؤوا جيبه بقطع الحلوى ثم حملوه أو اقتادوه ألى أمه وأبيه. وإذا تخطى مرحلة – الطفولة – الى الصبا ارتاد مسجد الحي ليصووب له الأخوال والأعمام ركوعه وسجوده وتلاوته، وارتاد مضافه الحي ليدربوه على الآداب العامة وكيفية المشاركة في بناء القبيلة.

أما في المدن الحديثة المزروعة بغابات البنايات الشاهقة المحشوة بأخلاط الأجناس الذين لا يجمعهم إلا " ثقافة الانتاج والاستهلاك"، فإنه لا يسمح للطفل أن يتخطى عتبة الشقة دون أن يملأ الوالدان أذنيه بالتحذيرات المرعبة وقصص الاطفال الذين خرجوا دون علم ذويهم فالتقى بهم الأشرار من الجيران والزوار على درجة البناية أو في المصعد، ثم انتهى بهم الامر الى الخطف والاغتصاب والقتل. وإذا تخطى الطفولة الى الصبا فتتحول هذه القصص المرعبة الى مبررات الالتحاق بشلل المراهقين الجانحين والجانحات، المدمنين على الجنس والمخدرات.

وفي خطط المدن والقرى الإسلامية كانت المراة تخرج متحجبة بالحياء وستر الأعضاء الى أسواق مليئة بالأقارب والمعارف، فلا تطاردها أعين زائغة، ولا تسمع ما تسمعه الفتيات والنساء في أسواق المدن الحديثة من شلل المراهقين وأسراب المتسكعين، وكانت بنات القبيلة " يتمايزن" بالحفاظ على شرفها وسمعة بناتها والحذر من الحاق العار بها، وكان الشباب " يتمايزون" بالفتوة والشجاعة ويتبارون بالرجولة المسئولة، حتى صارت " بنت القبيلة" و" ابن العيله" دلالة على العفة والحياء وسمو الاخلاق وتسامي العلاقات، وكان الزواج رباطاً مقدساً تربط المصاهرة فيه بين قبيلتين ويخرج لعقده وطلب يد الفتاه وفد كبير من " الجاهة" التي تضم " وجهاء القبيلة" وكبرائها ويتوجهون الى ديوان القبيلة التي تنتمي إليها الفتاة المخطوبة اشترك في إذاعة الخطوبة أعضاء القبيلتين في حفل الزواج وقد ملأ عروض الرقص الرجولي المليئ بتنمية إرادة الشجاعة وتقديم رقصة - العرضة – كما تسمى في الجزيرة العربية، أو رقصة – الجوفية- كما تسمى في بلاد الشام. ومن امثال ما قيل في هذه العرضات:

اول الفال ذكر الله واعتلينا ظهور النجايب

وينك اليوم يالي تعاديني كعملاقاتنا ما بيدك حيله

من قفارين لحايل نشرنا واعتالينا ظهورا النجايب

ثم استمر الفريقين بالكرم والتسامي والمودة والاحترام حتى نهاية الحياة.

أما في المدينة الحديثة فقد تحول الزواج الى علاقة جنسية بين ذكر وأنثى بتبادلات الوعود الواهمة والتمثيل والتصنع في لقاءات مريبة في المطاعم والمتنزهات والحدائق ثم ينتهي بعد الزواج الى المشاجرة والخصومة وتبادل الاتهام في المحاكم الشرعية حتى ينتهي الأمر الى الطلاق ونكد العيش وتدمير الحياة الاسرية.

كذلك تجسدت تطبيقات " القبيلة المتراحمة – المتعاونة على البر والتقوى" في تقسيم الأراضي الزراعية الى اقسام الى اقسام كبرى رئيسة ثم توزع هذه الأقسام بين القبائل حيث يوزع كل قسم الى قطع متجاورات تتملكها أسر القبيلة الواحدة، ثم يتعاونون على زراعتها وحصادها ويتبادلون محاصيلها وثمارها، ثم لا يكون في قبيلتهم جائع ولا محروم.

ولكن جميع هذه الفضائل القبلية والعشائرية المشار إليها لا تتحقق إلا إذا استرشد أعضاء العشائر والقبائل بتوجيهات القرآن الكريم والسنة الشريفة واستلهموا ثقافة " التعاون على البر والتقوى ": البر في داخل القبيلة، والتقوى خارجها، وكانوا على وعي كامل بالفرق بين " القبيلة – المتراحمة – المتعاونة " وبين " العصبيات القبلية " ومضاعفاتها

في " الإثم والعدوان ": الاثم داخل القبيلة، والعدوان خارجها على القبائل الأخرى وهو ما يشير إليه الحديث النبوي بوضوح تام: فقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم: أمن العصبية أن يحب الرجل قومه؟ قال: لا. ولكن العصبية أن يعين الرجل قومه على الظلم[[17]](#footnote-17).

ويقدم تاريخ العشائر والقبائل العربية والاسلامية التي تكونت منها أنها حين كانت تنقطع عن توجيهات القرآن والسنة فإنها تنقلب الى " عصبيات قبلية تتعاون لإشاعة " الإثم والعدوان " وترسيخ تقاليدها في الصنمية والنفاق والبهتان[[18]](#footnote-18) الى الدرجة التي جعلت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " من قاتل تحت راية عمية يدعوا الى عصبية أو غضب لعصبية فقتلته جاهلية"[[19]](#footnote-19). ويقول:" دعوها فإنها نتنه ".

و" العصبية القبلية" و" العصبية العشائرية " مرض اجتماعي يصيب القبيلة ويدمرها حين تضعف نظم التعليم والتربية والارشاد عن تزويد العشائر والقبائل بتوجيهات القرآن والسنة الداعية الى صلة الأرحام وثقافة " البر والتقوى " ويحل محلها " ثقافة التعاون على الإثم والعدوان " ومضاعفاتها، وحمية الفخر والتعاظم بروابط الدم وحدها ثم يكون من مضاعفات هذا التعاظم العداون على الآخرين والأذى والهجاء والسخرية والغزو والظلم وانتقاص إنسانية الانسان.

على أن أسوأ المضاعفات المرضية لـ " العصبية القبيلة والعشائرية " هي – الصنمية – وهي مرض نفسي – اجتماعي – عقدي يصيب الافراد والجماعات فيدمر انسانية الانسان ويقتل إرادته ويطفئ فاعليته ويحيله الى مخلوق يعبد ما صنعت يداه وتتقاذفه رياح التغيير دون أن يكون له أثر في صنع حاضرة أو تقرير مستقبله.

والأساس الذي تقوم عليه - الصنمية - يتكون من ثلاثة قواعد هي:

القاعدة الاولى: " دع " الأقوياء للضعفاء، أي اغتصاب حرياتهم وقهرهم والتسلط عليهم

القاعدة الثانية: سلبهم ممتلكاتهم، والاستئثار بموارد العيش والثروة دونهم.

القاعدة الثالثة: تشكيل عقول الأكثرية وقيمها وتقاليدها وعاداتها ليصبح الدع المشار إليه جزءاً من معتقداتها.

وبذلك تكون الصنمية – هي تخلي الأفراد والجماعات عن حرياتهم في التفكير والتعبير والاختيار، وعن ممتلكاتهم التي رزقهم الله إياها من أجل مخلوق آخر ثم التوسل إليه ليرد بعضاً منها إليهم.

ولقد أحس الشاعر العراقي معروف الرصافي بقبح هذه الصنمية التي تتنازل عن انسانيتها حينما قال:

عجبت لقوم يخضعون لدولة يسوسهم بالموبقات عميدها

واعجب من ذا انهم يرهبونها وأموالها منهم ومنهم جنودها

والقرآن الكريم يسمي الأقوياء الذين يغتصبون الحريات والممتلكات أسماء عديدة أوضحها وأخطرها اسم – الأنداد – أي أنداد الله تعالى – وإليهم كانت الإشارة في آيات عديدة مثل قوله تعالى:

- " فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون " ( البقرة 22)

- " ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله" ( البقرة 165)

ولقد فسر عبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهما: " الانداد" بانهم الرؤساء يطيعهم الأتباع في معصية الله.

ولا ينحصر مرض " الصنمية " في ظاهرة تاريخية معينة ولا يتحدد بزمان أو مكان ولا يقتصر على " العصبيات القبلية " وإنما العصبيات كافة سواء أكانت عصبيات أسرية أو عشائرية وقبلية أو شعوبية أو عرقية أو عصبية لون أو طائفية أو حزبية أو دينية أو قومية أو مهنية هي المحاضن الرئيسة التي تهيئ للصنمية أن تؤكد وتترعرع ولرموزها أن تستعبد عقول الناس وضمائرهم وتصادر حرياتها وتفرز مضاعفاتها.

لقد هدمت التربية الحديثة في أقطار العالمين العربي والإسلامي مكانة " القبيلة المتراحمة " وقللت من قيمتها بين المثقفين الذين لم يميزوا بين القبلية وبين " العصبيات القبلية " واستبدلوها بالتنظيمات الحزبية والنقابات المهنية والاتحادات العمالية. وهذه مؤسسات ذات بريق من الخارج، وجوفاء من الداخل، ومحور العلاقات فيها قائم على المصالح المادية وثقافة الانتاج والاستهلاك المجردة من التواصل والتراحم وتنتهي بانتهاء المصلحة أو انفضاض اللقاءات الرسمية والمظاهرات الحزبية والاعصامات المهنية، وخطب وأحاديث المجاملة المبطنة بالنفاق والحسد والكراهية، ولذلك يظل الفرد فيها يعاني من أمراض " الاغتراب " و" الضياع" و" العجر " وعدم الاستقرار، أضف إلى ذلك سهولة اختراقها من قبل أعدائها في الداخل والخارج ولكن أبرز الفروق بين النوعين من المؤسسات أن القبيلة المتراحمة تدرب على المسئولية والعطاء بينما مؤسسات الأحزاب والنقابات وأمثالها من المؤسسات تدرب على المطالبة بالحقوق والأخذ-. فلا يفكر الفرد إلا بما يأخذ لا بما يعطي ويتصاعد هذا النوع من التفكير حتى يصبح صراعاً وغزواً من القبائل ضد بعضها البعض.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

• للتوسع في معرفة " مرض الصنمية " راجع كتاب – الصنمية والاصنام - للمؤلف

كذلك اجتهدت السياسات الاستعمارية في بعث" العصبيات القبلية"

و" العصبيات المذهبية " و" العصبيات الطائفية " و" العصبيات العرقية " وتشجيعها واستغلالها أسوأ استغلال "لإشاعة ثقافة الاثم والعدوان " للهيمنة على شعوب هذا العالم ونهب ثرواتها وتشويه ثقافاتها فأرسلت منذ القرن الثامن عشر الميلادي البعثات والرحالة وأقامت مراكز البحوث في كبرى الجامعات لدراسة هذه العصبيات ثم تزويد صانعي القرار السياسي والعسكري بهذه الدراسات واكتشاف مواطن القوة والضعف في تنظيمم القبيلة وفي تنظيم التربية والإعلام والتنظيمات الادارية وتوزيع الوظائف الحكومية.

كذلك أعطت السلطات الاستعمارية في ثقافة " العصبيات القبلية " للقرار السياسي قيماً - معاني تعتمد على الجاه والنفاق- لا وزن لها ولا تأثير، ولا هم لها سوى التسبيح بأسماء الأصنام الانداد الذين لا يدفعون ضرراً ولا يجلبون نفعاً وكونت منها جيوشاَ وبوليس ودوائر مخابرات لا عمل لها إلا حماية هؤلاء " الاصنام " وتأمين الولاء لهم وإسكات روح المقاومة وتدمير إرادة الشعوب وسلب حقوقها.

وزاد الطين بله أن المثقفين في العالمين العربي والاسلامي لم يتبينوا وما زالوا لا يتبينون الخلط الفاضح والخلط بين " القبيلة المتراحمة " و" العصبيات القبلية " وأن ألأولى تتعاون على البر والتقوى بتوجيه القرآن والسنة بينما الثانية تتعاون على " الإثم والعدوان" بتوجيه الشعر والأدب الجاهلي والغناء والاهازيج وامتداداته في العصور الاسلامية.

لم يتبين المثقفون اهمية التراث القبلي في نهضة الشعوب وخطورته في تخلفها وضعفها والواقع أن التراث القبلي أكثر فاعلية من التراث السياسي، ولا يخلو منه زمان ولا مكان فهو تراث ذو حدين: حد ايجابي يفجر طاقات الانسان العربي والمسلم ويستخرج " وسعه وقدراته العقلية والنفسية والجسدية لاستعمالها ضد التحديات إذا احكمت التربية الاسلامية توجيه هذا التراث وتحديد مساراته وحسن استثماره لنصرة القضايا الوطنية الكبرى وإشاعة ثقافة " التعاون على البر والتقوى" ولكن حين يضعف تأثير التربية الاسلامية وتتم تغذية – انسان القبيلة – بادب العصر الجاهلي وامتداداته المتمثلة بشعر أمثال جرير والفرزدق التي تدور حول الدوران في فلك " الاشخاص " والاهازيج والاغاني الشخصية بدل " الافكار الاسلامية" فإن الانتماء القبلي يتحول الى خدمة " العصبيات القبلية " ونصر ثقافة " الاثم والعدوان ". وقديماً استغلت كل المقدرات لعصبياتها بما فيها الدين الذي بعث به إبراهيم وإسماعيل عليهما، حتى أنها وضعت الحج في خدمة عصبياتها القبلية، فشكلت شعائره طبقاً لهذه العصبيات، وافرزت تلبيات خاصة بها، ولتوضيح الفرق بين القبيلة المتراحمة التي وجهها ثقافة " التعاون على البر والتقوى" وبين العصبية القبلية التي وجهها ثقافة " التعاون على الأثم والعدوان" نستعرض تاريخ قبائل قريش العشرة وأشهرها القبائل المذكورة ومن أمثلة ذلك الآتية:

1- تلبية قريش: لبيك اللهم لبيك، إننا لقاح، حرمتنا أسنة الرماح، يحسدنا الناس على النجاح.

2- تلبية قبيلة أسد: لبيك اللهم لبيك، يا رب أقبلت أسد، أهل التواني والوفاء والجلد.

3- تلبية قبيلة ربيعة: لبيك عن ربيعة، سامعة لربها مطيعة[[20]](#footnote-20).

ومنذ القرن الثامن عشر الميلادي أدركت القوى الاستعمارية هذه الفاعلية السلبية لتراث العصبيات القبلية فأرسلت الرحالة والبعثات الاستشراقية لدراستها ووظفتها لتنمية وإشاعة " ثقافة الغزو " غزو الدول الحديثة والتقاتل على نهب وظائف في الادارة والحكم والسياسة والعسكرية والتربية والثقافة والإعلام في الوقت الذي بترت هذه القبيلة من إرشادها الاسلامي ووصلتها بالتراث الجاهلي وآدابه، والذين نفروا من هذا الاستثمار الاستعماري للعصبيات القبلية أفرزت لهم القوى الاستعمارية ملهاة عديمة الفاعلية، غريبة الانتماء تجسدت بتنظيمات الحزبية والنقابات المهنية على النمط الاأوروبي والأمريكي الحديث القائم على ثقافة " الانتاج والاستهلاك".

لذلك لم تختلف العصبيات القبلية الحديثة عن النمط الجاهلي في الحمية والانتماء، وما زالت توجه تفكير الانسان في العالمين العربي والاسلامي، وتستنفذ طاقاته وممتلكاته لتقديم أغلى ممتلكاته. وهي تتنافس لنصب أصنامها البشرية في المناصب السياسية والادارية في المجالس البلدية والنيابية.

وحين استبدل الانسان القاطن في الاقطار العربية والاسلامية مؤسسات العشيرة والقبلية باللتنظيمات الحزبية والمهنية لم يكن هذا الاستبدال إلا تكيفاً حرباوي " نسبة للحرباء".

على المظاهر الخارجية المتمثلة بالشعارات والأسماء أما المحتوى فقد بقي " عصبيات قبلية" أو " عرقية " أو " دينية" أو " حزبية" وهكذا، ولذلك انساحت أفكار الاحزاب في أواني العصبيات القبلية.

ومن طريف ما سمعت أن حاجاً من قبيلة – القبلان – الأردينة حين ذهب الى الحج وازدحم الطواف حول الكعبة أخذته حمية العصبية القبلية فكشف عن رأسه ووضع غطاءه تحت أبطه ثم اندفع يزاحم الطائفين والطائفات ملبياً بهذه الكلمات:

قبلان لا تذلي كم هوشة حضرناها

و" الهوشة " لفظة عامية تعني " المشاجرة " كانت تنشب بين القبائل الأردينة من آن لآخر والناظر في سلوك الافراد والجماعات في الاقطار العربية والاسلامية يرى أن الولاء للعصبيات القبلية أقوى من الولاء للدولة، وإن المعركة الحقيقية التي يخوضها الانسان القبلي هناك هي النافس بين القبائل لاستلاب موارد الدولة ومقدراتها مستغلاً نفووذه في مناصب الدولة لمنفعة قبيلته وإيثارها.

ولذلك فإن أول ما تحتاجه المجتمعات العربية والاسلامية ليس محاربة القبيلة أو العشيرة وإنما تزكية ثقافاتها وذلك من خلال اجراءات سنضمنها في الفصل الأخير.

وفي آخر البحث لا بد أن نشير إلى ظاهرة حديثة أفرزتها سياسات العولمة الغربية الحديثة، هذه الظاهرة هي تحدي دول شرق آسيا وعلى رأسها ماليزيا وأندونيسيا، حيث نجحت تلك الدول في حفظ أسواقها ونشاطاتها الإقتصادية من التلاعب الذي كان يمارسه كهنة العولمة الحديثة ورؤوس دولها والبنك الدولي والمؤسسة الإقتصادية الدولية، فقد فشلت سياسات هذه المؤسسات في النيل من صلابة دول شرق آسيا وتنفيذ سياسات العولمة فيها.

لقد أخذ المحللون الاقتصاديون في الغرب الامريكي والاوروبي ولخصوا السبب في ما أسموه " دخول العائلة الممتدة " على ميادين النشاط الاقتصادي الحديث وحلت محل الشركات الاجنبية، والواقع أنها كانت قبائل، حيث اسندت الدولة الى كل قبيلة صناعة من الصناعات كصناعة السيارات وغيرها من التقنيات الحديثة، واختصت كل قبيلة بقسم يميزها عن غيرها، واستعملت أعضاءها ليقوموا بدور العمال في المصانع المذكورة.

والواقع أن هذا هو تطبيق حديث يمكن نشره في كافة العالم الاسلامي بدلاً من إلهاء القبائل بالنزاعات الحديثة والتنافس بإلقاء الاشعار وغير ذلك من العصبيات، فيمكن أن تستغل القبائل العربية والاسلامية، وتتوزع بينها ميادين النمو الاقتصادي والاجتماعي وبذلك تعود القبيلة لحمل مسؤولياتها لمعالجة مشاكل الفقر والفساد وتقوم بأداء دورها في التعاون على البر والتقوى[[21]](#footnote-21).

الفصل الرابع

مؤسسات التربية والتعليم

لا تقف هذه المؤسسات – بثوبها الاسلامي – عند القيام بعلمية التربية والتعليم، وإنما تضيف الى هذا التعليم توفير البيئة التي توفر للمتعلم المسلم أن يعي ما يتعلمه ويتذوق روح محتواه والقيم التي تصاحبه ويتمثل ممارسته العملية، وتسري في شبكة علاقاته الانسانية، ومع كثرة ووفرة هذه المؤسسات الا أن التركيز سوف ينصب على أكثرها شيوعاً وأعظمها أثراً وهي:

أ‌- مؤسسة الكتاتيب أو دور القرآن

وللوقوف على عظمة دورها وعمق أثرها ننظر في الأمور الآتية:

- الأمر الأول: درجة اسهام هذه المؤسسات في دعم الأسرة المسلمة وهي تعمل لتحقيق الوظائف الخمس في السنوات الأولى من حياة الطفل المسلم، وهذه الوظائف هي:

1- تحديد الذات أو الهوية، ومحتواها هي الإجابة عن أول سؤال يخطر في صدر الطفل وهو: من انا؟

2- تقبل الذات، ومحتواه الإجابة عن السؤال الثاني الذي تحمله الخواطر التي تتتلجلج في صدر الطفل ويقول: ما مدى صحة تكويني الذاتي وحسن شكلي وقوامي وهيئتي؟

3- تمييز السلوك، ومحتواه هو الاجابة عن سؤال: كيف أسلك؟

4- تطوير ضمير حي، ومحتواه الاجابة عن سؤال: ما هو الصحيح الذي يجب أن أفعله؟

5- الإنجاز والنجاح ومحتواه هو الإجابة عن سؤال: ما قيمة الذي أفعله؟

حتى إذا دلف إلى ابواب الصبا أجاب له سؤال عن النشأة والمصير وهذا هو الاجابة عن من أنا.

والاجابات عن هذه الاسئلة لا يفكر بها الطفل ولا يصيغها ببيان وتعبير كلامية، وإنما هي توجيهات يتلقاها بمشاعره وأحاسيسه، ويتلقاها من العلاقات الاولى التي يقيمها في أول دائرة اجتماعية يواجهها، ثم يخزن الاجابات في – منطقة اللاوعي – لتشكل الحجر الأساسي في بناء قيمه وتحديد مسارات أخلاقه وأفعاله فيما بعد.

ولتكون الإجابات سليمة نافعة لا بد أن تكون البيئة التي تزوده بهذه الاجابات مفعمة بالحب الرفيع والدفء الودود والامن والغيرة على المحرمات والعطف والعطاء الذي ليس له حدود، وهذه بيئة لا توفرها إلا الأسرة المسلمة حقاً والتي تتغاض عن جميع عيوبه ومضاعفات اعتماده في قضاء حاجاته وملوثات لباسه ومداخيل بطنه وما يخرج منه.

ويتضافر مع الاسرة أول مؤسسة تعليمية تستقبله في سن الرابعة – حتى السابعة والكتاب أو دار القرآن هو المؤسسة المؤهلة للمشاركة في تنفيذ هذه الوظائف الخمس، ومنهاجه الذي يتمحور في جزء عم ومرفقاته من مهارات الكلام والسماع والحساب وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ونماذج صغيرة من سير صحبه وآله وأتباعه، هذا المنهج هو مصدر الاجابات التي مرت الإشارة إليها، أما رياض الاطفال، والمدرسة الابتدائية التي وفدت في ركاب المستعمرين او جلبها المغتربون فهي – في أحسن حالاتها – تقلع في الإتجاه المعاكس للوظائف المذكورة، وتبدأ مسارات الطفوله على طرق الاغتراب عن نفسه وضياع هويته، وفراغ قيمه، تبدأ من - منهاج النشاط كما سماه جون ديوي – الذي يتركز حول " اللعب " الذي يؤهله للمحطة الثانية – محططة اللهو في الشباب، ثم محطة " التكاثر بالاولاد " في مرحلة الشيخوخة، الى أن ينتهي غريباً عن ذاته جاهلاً بنشأته ومصيره ومفهوم الحياة عنده – في أحسن حالاتها – انتاج ثم استهلاك.

ولقد فصل علماء التربية في عيوب هذه المدرسة – وأثرها في عدم بلورة هوية المتعلم.

وتشهد المجتمعات الاسلامية المعاصرة بشواهد ذلك وأهميته، فالأشخاص الذين بدأوا طفولتهم في – كتاتيب القرآن الكريم – اكتسبوا الورع والتقوى، وأشبعت حاجاتهم النفسية في الانتماء والهوية، فنضجت أشخاصهم واستقام سلوكهم وحين انتقلوا الى مقاعد الدراسة في الجامعات غير الاسلامية لازمتهم الاتجاهات المؤمنة والاخلاق الفاضلة.

كذلك المشايخ والعلماء الذين بدأوا حياتهم في الكتاتيب القرآنية ثم استمروا في المعاهد الشرعية نضج فيهم الورع والغيرة على حرمات الله وبدأوا حركات الإصلاح والتجديد.

أما المشايخ والفقهاء الذين بدأوا في رياض الأطفال والمدارس الابتدائية الحديثة التي استبدلت سور القرآن الكريم بالقراءة المصورة والخبرات التعليمية الدنيوية ثم التحقوا بكليات الشريعة بعد التخرج من الثانويات الحديثة فإن غالبيتهم يفتقرون الى الدرع وترفع العلماء والبعد عن مواطن الشهوات والتزلف الى السلطان وظلوا متأثرين بالاتجاهات الدنيوية التي أشربوا اتجاهاتها في المرحلة الابتدائية – ولم يكن المؤهل الشرعي لديهم سوى وسيلة للحصول على زينة الدنيا وشهواتها في المال والجاه وغير ذلك.

ومن أجل هذه الاهداف الدنيوية تنتزع - الرأسمالية الحديثة – الأطفال من أسرهم وبيوتهم الى دور الحضانة ورياض الاطفال التي تربيهم على قيم العمل والانتاج والاستهلاك تمهيدا لمعرفة معلوماتها، ويتدرب على مهاراتها في المراحل الدراسية التي تلي المرحلة الابتدائية.

الأمر الثاني: هو كيف ينظر خبراء – العولمة الثقافية – الى دور القرآن المنتشرة في العالم الاسلامي، ففي عام 1980 قام البروفسور دانيال أ واجنر Danial A. Wagne- صلى الله عليه وسلم - الاستاذ في الدراسات العليا بكلية التربية في جامعة بنسلغانيا – في نفس العام – بالسفر الى العالم الاسلامي لمدة خمسة شهور، وأجرى عدداً من البحوث عن – دور القرآن – وأثرها في الصحوة الاسلامية الجارية، ومن هذه البحوث البحث الذي حمل عنوان:

تعليم القرآن في العام الاسلامي المعاصر

Qu- صلى الله عليه وسلم -anic Education in Todayes Islamic Wo- صلى الله عليه وسلم -ld

" ينهض الشيخ عبدالله Se- صلى الله عليه وسلم -igne Abdoulye بعد الفجر، وهو رجل في الخمسينات من العمر، ولكنه مفعم بالنشاط والحماس والحيوية، ويتقن اللغة السنغالية، بالاضافة الى اللغة العربية الفصحى، ويعكس مكتبه المليئ بالكتب والمخطوطات المبعثرة، والشهادات والصور وخبراته الطويلة في تدريس القرآن، وبعد وصوله الى – دار القرآن- التي تعرف باللغة السنغالية باسم Jongu، يبدأ وصول الاولاد والبنات الذين تتراوح أعمارهم بين السنة الثالثة وبين سن المراهقة، ثم يتخذون مقاعدهم الحددةفي غرفة طويلة لها سقف من الزنك المتموج. وكل طفل يسمى – طالب – ويحمل لوحاً خشبياً مكتوب عليه حوالي 25 – 30 سطر من الخط العربي، بالحبر الأسود المصنوع من رماد القش الأسود والماء.

وبعد دقائق قليلة يبدأ دوي أصوات حوالي 50 طفل. بينما يمسك كل طفل بلوح خشبي، وهو يحرك رأسه الى الامام والخلف بينما يقرأ بلحن مؤثر رتيب ينضنه الغربيون من أمثالي شكلاً من أشكال الترانيم الدينية، بينما الواقع هو أن الاطفال – في مكتب الشيخ عبد الله – يتعلمون سوراً من القرآن الكتاب المقدس في العالم الاسلامي كله وحيث الصغار يقلدون الكبار في هذه القرآءة ويكررون نفس الألفاظ والجمل بألحان مماثلة، مع أنهم لا يفهمون ما يقرؤون. أما الأطفال الكبار المراهقين، الذين يعرفون شيئا من اللغة العربية، فهم يدرسون بشكل فردي أو مجموعات صغيرة، ويركزون على سور أطول، ويستمرون في القراءة والإنشاء بطريقة تشبه ما يفعله الأطفال الصغار.

أما الشيخ عبدالله، فهو يقوم بتعليم نفر من هؤلاء الطلاب الكبار، ليدربهم ليكونوا مدرسين في الكتاتيب القرآنية )).

بعد هذه المقدمة، يمضي البروفسور (( واجنر)) في تبيان خطورة الكتاتيب القرآنية؛ فيذكر أن التعلم في هذه الكتاتيب أكثر فاعلية، وأن كتاب الشيخ عبدالله الذي يكتب عنه، هو نموذج لمدارس قرآنية تنتشر في العالم الإسلامي، مع أن بعض الأقطار تعارض قيام مثل هذه الكتاتيب، ولكن المشرفين عليها يمارسون التعليم فيها في غفلة من الحكومات المحلية.

ويضرب مثلا لذلك بالقول: إن مدرسة الشيخ عبدالله الواقعة في مدينة صغيرة تسمى (( ديوربل Diou- صلى الله عليه وسلم -bel )) وتقع غرب مدينة داكار – العاصمة – بمسافة ( 60) ميلا مع أن الحكومة السنغالية لا تدعم هذه المدرسة القرآنية، وأقامت مدارس حديثة على النمط الغربي والامريكي، ولكن دور القرآن وقفت عائقا أمام المدارس الحكومية، وتسببت في فشل أهدافها. وبمثل هذه المدارس الإسلامية استطاع الإسلام أن يحافظ على وجوده عبر الأجيال في العالم الإسلامي كله في أفريقيا آسيا.

ويضيف البروفسور (( واجنر )) أن دور القرآن هذه، هي المحاضن الأولى التي نشأ فيها القادة والعلماء والدعاة، الذين قادوا الحركات الإسلامية ضد الغزو الأوروبي الأمريكي، وأنها – في الوقت الحاضر – تتطور في كل بلد إسلامي، ابتداء من إندونيسيا وعبر آسيا وأفريقيا حتى مراكش، حيث الطلاب يحتضنون القرآن ويقرؤون فيه، وهم يلوحون برؤوسهم – كما يفعلون في مدرسة الشيخ عبدالله في السنغال – وينشدون بنفس الألحان ( أي التجويد ).

ثم يضيف البروفسور ((واجنر)) القول أنه بالرغم من انتشار هذه المدارس في العالم الإسلامي كله، فإن خطورتها ما زالت لم تنل الاهتمام اللازم، وإن ما يقدمه في البحث الذي أجراه، ليس إلا عينة صغيرة لما يجري في العالم الإسلامي كله... وأن نذر هذه المدارس تبدو واضحة جلية في الثورة التي قامت في إيران قبل سنتين (1978) والتي تحتل أنباؤها في الصفحات الأولى من صحف العالم الكبرى.

ويتابع ((واجنر)) عرض ما رآه في أقطار أخرى، كاليمن والمغرب العربي وأندونيسيا والسعودية، ثم يعلق قائلا:

(( لقد كان أول محطة لهذا البحث هي إندونيسيا، التي يقطنها (140) مليون مسلم، ولكن قليلا من الغربيين يخطر بباله أنها بلد إسلامي، لأنهم لا يرون فيها إلا تاريخ البوذية السابق على الإسلام، ولأن السائد عندنا هو قبعة سوكارنو ( رئيس إندونيسيا أنذاك ) التي تذكرنا بالقبعات المالوية، بدلا من تذكر عمائم العرب الذين نشروا الإسلام في تلك الديار... وكل بلد إسلامي مررنا فيه رأينا المدارس الإسلامية التي تلتصق بالمساجد والنشاط فيها على قدم وساق )).

وأخيرا يختم ((واجنر)) بحثه بالقول:

(( من إندونيسيا إلى المناخ الحار في السنغال، ومرورا بالشرق الأوسط،

فإن جميع الأقطار التي مررت بها، وجدنا إسلاما عنيدا، يعمل ليل نهار، لصبغ المنطقة بالصبغة الإسلامية، وتهيئ السكان لمواجهة النفوذ الامريكي – والأوربي(1).

ب‌- مؤسسات العلوم المهنية والطبيعية:

غايتها في التربية الإسلامية تحقيق هدفين اثنين:

الأول: استخراج نعم الله من خزائن الأرض والفضاء، ليكون هذا أداة لشكر الله سبحانه.

والثاني: العلم بخلقه وقدرته المبدعة في إيجاد الأشياء، فيزداد اليقين في آفاق الكون. وقد تم استعراض تفاصيل الحكمة من دراسة الكون في كتاب المؤلف الذي يحمل عنوان (( فلسفة التربية الإسلامية )) فليراجع هناك.

جـ- التربية الاقتصادية:

التوجيهات الاقتصادية في القرآن الكريم كثيرة ومتعددة، كذلك في الحديث النبوي الشريف، ويلاحظ على الآيات التي وردت في القرآن الكريم أنها ركزت على عملية الانفاق وعملية الكسب ووضعت لذلك حدوداً ميزت به الحلال عن الحرام، ومن هذه التوجيهات:

أولاً: أن الأصل في الاشياء الاباحة ما لم يرد دليلاً على التحريم

ثانياً: أن المال لله والأمة جميعها مستخلفة عليه، يتعاملون به طبقاً لمؤهلات الخلافة الاقتصادية

ثالثاً: رغم أن التربية الاسلامية أكدت الملكية الجماعية إلا أنها في تشريعاتها وتطبيقاتها لا تسمح بظهور الشركات الرأسمالية، فالمال دائماً في تقسيم بين الأفراد والجماعات كما يحدث في الإرث

رابعاً: في القرآن اشارة واضحة الى أنه يوجه الى الاقتصاد المحلي الذي لا تتسع مجالاته حتى تتشابك مع المؤسسات الكبرى في العالم كما مر في سورة سبأ حيث بدأت السورة بذكر علامة مميزة للاقتصاد الذي تطرحه التشريعات الالهية، حيث أن هذه التجربة علامة واضحة على وجوب اشتغال الامة بالزراعة واتقان اساليبها. لا يجوز الجري وراء التيارات جرياً يخرجها من إطار الاقليم الذي تدور فيه، فقد كانت سبأ اعتمادها الأول على الارض والسدود ثم عملت في التجارة ثانياً من الاقطار والقرى المجاورة لها، بهذا الاقتصاد كانت بلدة طيبة من الفجور والظلم وإذا اخطؤوا غفر الله لهم هذه الاخطاء، ولكن حين طمحت نفوسهم لركوب البحار وقطع الصحارى للحصول على ارباح اكثر أهملوا الزراعة فنهارت السدود وخربت الارض واصبحت لا يوجد فيها الا الحيوانا ت البرية وكما أدت الى تمزيق اسرهم وقيمهم اجتماعية وفساد اخلاقهم، فعدهم الله ظالمين لانفسهم ومزقوا كل ممزق وأصبحوا أحاديث، فنستنتج من ذلك أنه لا يجوز للمسلمين أن يهملوا الانتاج المحلي الزراعي وملحقاته، ويجب أن يأكلوا مما تنتجه أيديهم وأراضيهم، وعدم الاعتماد على ما ينتجه غيرهم، وقد قدم اقتصاديوا العصر الحديث ابحاثاً تشبه ذلك من ذلك ما كتبه الاقتصادي الشهير هنري شوماخر هذا الذي كتب كتاباً اشتهر في العالم باسم ( الاقتصاد الصغير شيء جميل ) وكذلك نلاحظ أ أساس القلق العالمي والسياسي سببه الشركات الكبرى التي كانت وراء الاستعمار وآثاره المدمرة.

د - سلبيات المدارس والجامعات الحديثة:

ليس كل مدرسة أو جامعة زينت مبانيها وجرى تحديث أثاثها ومعداتها وارتقت شهادات العاملين فيها، هي مؤسسة تفرز علما نافعا وقلوبا خاشعة، وإنما النافع هي المؤسسات التجديدية التي تركز عملها حول تجديد المعلومات وتنمية المهارات والاتجاهات عند الإنسان الذي تخرجه وتؤهله للإسهام في مواجهة التحديات، وتلبية الحاجات في ضوء متغيرات العصر، وعلاقات الإنسان بالخالق والكون والإنسان والحياة والآخره.

ولكن تاريخ التربية الحديثة يخبرنا أن مؤسساتها القائمة تنقسم إلى قسمين: مؤسسات التعليم الخاص، التي تعد أبناء الطبقات العليا للقيادة والتملك، ومؤسسات التعليم العام التي تعد أبناء الطبقات الدنيا للعمل والتبعية. ولذلك تعمل الأولى على تنظيم مناهجها وإداراتها؛ لتقدم للدارسين فيها المعارف والمهارات والاتجاهات اللازمة للحكم والتملك، بينما يتركز عمل مؤسسات التعليم العام على صب الإنسان الذي تخرجه في قوالب جامدة التفكير، موجهة الإرادة، ويكون من ثمارها إفراز ثقافة القطيع الذي يطيع نظم العمل وقوانينه، يظلم فيصمت، ويؤمر فيطيع، ولا تتعدى همته حاجاته في الغذاء والكساء والنكاح.

ولعله من المناسب أن نقول: إن مؤسسات التعليم العام في الأقطار المتقدمة لا تخلو من التجديد، ولكنه تجديد لا يشمل غايات الحياة، وأفكار الإنسان ومشاعره المتعلقة بقضايا النشأة والحياة والمصير، وإنما يقتصر على معارفه العلمية والإدارية، وكل ما يساعد على تجديد وسائل الحياة في الإنتاج والاستهلاك.

أما مؤسسات التربية في أقطار العالم الثالث – ومنها الأقطار العربية والإسلامية – فهي خالية من التجديد،

معادية لها، وظيفتها قولبة العقول والإرادات، بما يحقق الخضوع المطلق للنظم السياسية الحاكمة والأعراف والتقاليد الشائعة. ومن أراد الوقوف على أصول تخطيط هذه النظم التربوية، فليقرأ ما كتبه – مثلا – ((مارتن كارنوي)) في كتابه (( التربية كاستعمار ثقافي ))، وما كتبه ((بولر فرير )) في كتبه المختلفة، وما كتبه أمثال ((جول سبرنج))، ((وبولز))، و((جنتس)) ممن جرت مناقشة مؤلفاتهم في بعض مؤلفات المؤلف[[22]](#footnote-22).

والحركات الإصلاحية – في العالم العربي والإسلامي – مسؤولة عن عدم وعيها بما يجري أمام بصرها منذ مطلع هذا القرن الميلادي، حين كان الخبراء الأجانب ووكلائهم الأقارب يغلقون المؤسسات التعليمية ولا يطورونها، لقد كان المفروض أن لا تلغى مؤسسات الكتاتيب والجامعات والمعاهد الإسلامية، ولا أن يقام إلى جانبها مؤسسات حديثة علمانية، وإنما كان اللازم تطويرها، بحيث تتكامل فيها علوم غايات الحياة مع علوم وسائل الحياة، مع مراعاة التجديد في كلا النوعين من العلوم. تركت حركات الإصلاح التعليم للمؤسسات الأجنبية ومن على نمطها، ثم مضت تنظم خريجي هذه المؤسسات المغتربة في جماعات وأحزاب يتصارع أعضاؤها حسب التناقضات التي تبذرها في نفوسهم مؤسسات التعليم المغتربة، ثم يكون من نتائج هذا الصراع بعثرة المجهودات وهدر الطاقات. وانتقاص الذات عنده وعجزه عن تطوير القيم والمعايير التي يقيس بها أفعاله ويقيمها، وافتقاره الى مفاهيم الخير والذوق والجمال، ومضاعفات هذا الفقر في الضياع والاغتراب والقلق والجشع والشح وعدم الامن (1

كذلك فصل علماء الاجتماع وعلماء اجتماعيات التربية في نقائص المدرسة الحديثة وعجزها عن المساهمة في بلورة المكونات الرئيسة الخمس لشخصية الطفل، والمراجع في هذا الموضوع أكثر من أن تحصى أعدادها أذكر كتابات أبراهام ماسلو في كتبه المختلفة، وأربك هـ. اريكسون في كتابه " الطفوله والهوية " ومثله الكتاب الرائع الذي كتبته عالمتان في الاجتماع التربوي بعوان: " السبيل الذي تعمل فيه المدرسة ". ومثلها عشرات المؤلفات والإتجاهات التي كتبها المختصون في تاريخ المدرسة الابتدائية الحديثة ومضاعفاتها في الانتقاص من انسانية الانسان، وترويضه وإعداه لدنيا العمل في مصانع الرأسمالية ومعابد حضارة الانتاج والاستهلاك – كما يسميها مؤرخوا التربية في أمريكا – من أمثال: مارتن كارنوي وصمويل جينتس وأرنس بيكر وجول سبرنج وكثبر، ومثله ما نشاهده في المجتمعات الاسلامية الحاضرة - المعاصرة حيث الاشخاص الذين بدأوا طفولتهم في – كتاتيب القرآن الكريم... .. الخ.

ومن نفس المنطلق التحريمي رفض الامام ابو حامد الغزالي العودة للتدريس في المدرسة النظامية ببغداد وبنى لنفسه مدرسة خاصة في نيسابور ولقد اقتدى به شيوخ التجديد والاصلاح فبنوا مدارسهم وأربطتهم واستقلوا فيها بمناهجهم وطلابهم.

ومن المؤسف أن لا يستلهم المسلمون المعاصرون هذه التجربة التربوية الاصلاحية بعد أن عانوا – وما زالوا يعانون – من الآثار المدمرة لمؤسسات العبث التربوي القائمة، بينما بلغت نسبة الذين أوقفوا إرسال أبنائهم وبناتهم إلى مدارس الدولة في الولايات المتحدة الأمريكية – في الوقت الحاضر – حوالي 30% والنسبة في ارتفاع مستمر، بعد إن رأت الأسر الأمريكية كيف تفترس المخدرات وجرائم القتل والفوضى الجنسية ابنائها وبناتها في مدارس الدولة ومناهجها.

قم أقاموا بدل التعليم الحكومي مجالس تربية خاصة ووضعوا مناهجهم وبامجهم التربوية الخاصة، واشرافهم الخاص الذي يوجه أولياء الأمور الى كيفية تعليم أبنائهم وبناتهم في بيوتهم، وأطلقوا على هذا التنظيم اسم – التربية البيتية – وتدرجوا بها من المرحلة الابتدائية حتى الجامعة، وللحركة مطبوعاتها ومجلاتها التي تعرف بها وتدعو بقية المواطنين الى الانضمام ليها[[23]](#footnote-23).

ومن نفس المنطلق التحريمي، رفض الإمام أبو حامد الغزالي العودة للتدريس في المدرسة النظامية ببغداد، وبنى لنفسه مدرسة خاصة في نيسابور. ولقد اقتدى به شيوخ التجديد والإصلاح، فبنو مدارسهم وأربطتهم، واستقلوا فيها بمناهجهم وطلابهم.

ومن المؤسف ألا يستلهم المسلمون المعاصرون هذه التجربة التربوية الإصلاحية، بعد ان عانوا – وما زالوا يعانون – من الآثار المدمرة لمؤسسات العبث التربوي القائمة، بينما بلغت نسبة الذين أوقفوا إرسال أبنائهم وبناتهم إلى مدارس الدولة في الولايات المتحدة الأمريكية – في الوقت الحاضر – حوالي 45 % والنسبة في ارتفاع مستمر؛ بعد أن رأت الأسر الأمريكية كيف تفترس المخدرات وجرائم القتل والفوضى الجنسية أبناءها وبناتها في مدارس الدولة ومناهجها.

ثم أقاموا بدل التعليم الحكومي مجالس تربية خاصة، ووضعوا مناهجهم وبرامجهم التربوية الخاصة، وإشرافهم الخاص الذي يوجه أولياء الأمور إلى كيفية تعليم ابنائهم وبناتهم في بيوتهم، وأطلقوا على هذا التنظيم اسم (( التربية البيتية )) (Home Education) وتدرجوا بها من المرحلة الابتدائية حتى الجامعة، وللحركة مطبوعاتها ومجلاتها التي تعرف بها، وتدعو بقية المواطنين إلى الانضمام إليها[[24]](#footnote-24).

الفصل الخامس

مؤسسة المساجد

أ‌- معنى المسجد لغةً وشرعاً:

المسجد لغة – بفتح الميم وكسر العين – اسم مكان السجود، و- بفتح العين - اسم مصدر وهو جبهة الانسان في الجزء الذي يلامس الارض عند السجود.

أما شرعاً فالمسجد كل موضع من الأرض لقوله صلى الله عليه وسلم: " جعلت لي الارض مسجداً ". وهذه خصيصة اختص بها الرسول صلى الله عليه وسلم وأمته لأن الرسل قبله ابيحت لهم الصلوات في أماكن مخصوصة كالبيع والكنائس.

ولما كان السجوج أشرف افعال الصلاة بقرب العبد لربه، فقد اشتق اسم المكان من السجود فقيل نسجد ولم يقولوا نركع ثم جرى العرف اطلاق اسم مسجد على المكان الذي يخصص للصلوات لخمس والاعياد ونحو ذلك.

ب‌- رسالة المسجد: وكان المسجد يقوم بثلاثة وظائف هي:

1- العبادة: وجوهرها ذكر الله وتوحيده وذلك لقوله تعالى: فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (36) رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (37) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (38) " النور ولقوله تعالى: الا بذكر الله تطمئن القلوب.

والذكر الذي تشير إليه الآيات لا يقف عند ذكر اللسان وانما يمتد ليصبح ذككر العبادة وذكر المعرفة وذكر الممارسة ليكون ثمرة هذا الذكر اشراق النور الالهي في حياة الذاكرين وممارساتهم عبر الزمان والمكان "

" ليجزيهم الله أحسن ما علموا ويزيدهم من فضله... ... {اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ }النور35.

"

أما الذين يتنكرون لهذا القانون الالهي ويحاولون كفره – اي تغطية – بضجيج الأهواء والاستكبار وعنجهية الطغيان والبغي فإن أعماله كسراب يحسبه الضمآن ماء وحين وصوله لا يجد شيئاً أو هي كظلمات في بحر تغشاه الامواج والغيوم المتبلدة طبقات فوق طبقات ولا شيء يخرجهم من اللظى الى نور الله الذي يبحر ذكره في قلوب الساجدين.

وهذه هي صفة الكآبة النفسية واجتماعية والسياسية والاقتصادية التي تغمر المجتمعات والحضارات التي تعرض عن ذكر الله أو تغفل عنه مهما تقدمت في العلوم الطبيعية وتطبيقاتهاالتقنية " ومن اعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى". وفي آية أخرى يقول الله سبحانه وتعالى: " وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة ( تحقيق الأية ) وروعة الاعجاز في هذه الآية أن العمل الحديث قد أثبت أن الأمراض كلها القلق والكآبة والغضب الذي يثور في الصدور ثم ينفجر في بقية الاعضاء إما على شكل جلطات أو تصلب في الشرايين أو سكري... الخ، لذلك القرآن يعالج الإنسان من البداية الأولى للمرض فلا تنفجر في حياته هذه السلسلة اللامتناهية من الامراض الجسدية التي منشأها الجوانب النفسية وهنا تبدو سخافة الطب النفسي في الحضارة الحديثة الذي يعالج امراض النفوس بالمسكنات المادية وقد أثبت الواقع الذي يعيشه الناس أن أهل الذكر والجهد والطاعة لا يتعرضون لهذه الأمراض وأن الذين أصيبوا بها قد شافاهم الله بالقرآن. (الدكتور غالب ربابعة يوم الجمعة الموافق 13/4/2012م)

ويؤكد القرآن الكريم افراد الله بالذكر في المساجد لإنهما له وحده ولا يجوز ان يدعى معه أحد " وأن المساجد لله فلا تدعوا معه احدا". ويحذر الذين يجعلون لله أنداداً يذكرونهمم الى جانب ذكر الله تعالى: " فلا تجعلوا لله انداداً وانتم تعلمون "

" ومن الناس من يتخذ من دون الله انداداً يحبونهم كحب الله "

" وجعلوا لله انداداً ليضلوا عن سبيله "

" وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار اذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له اندادا وأسروا الندامة لما رأو العذاب "

و- الانداد – عند ابن عباس وابن مسعود هم الزعماء والرؤساء يمدخهم الاتباع ويطيعونهم في معصية الله ويفضلون مرادهم على مراده.

ومن هذا المنطلق حرص أئمة السلف على ذكر الله وحده بالخطب التي تلقى في المساجد وكرهوا أن يقترن دعاء السلطان بها قال الشيخ ابو اسحاق: لا يستحب الدعاء للسلطان في الخطبة. وسئل ابن عطاء الله السكندري عنه فقال: محدث – اي مبتدع بعد عهد الرسالة – وانما كانت الخطبة تذكيراً أي تذكير الحاكم بطاعة الله والتحذير من مخالفة أمره وهذه السنة التي جرى عليها عهد الراشدين ثم تلتها عصور صاروا يدعون للخلفاء ثم أوقفها عمر بن عبد العزيز ثم عادت بعده الى ان اوقفها نور الدين زنكي وصلاح الدين الايوبي ثم عادت بعد ذلك.

لهذا ميز القرآن بين مسجد التقوى والثاني مسجد الضرار، ودعا الى الاقامة في الاول وحذر من الثاني: " والذين اتخذوا مسجداً ضراراً... .... ".

والوظيفة الثانية من وظائف المسجد هي التعليم بجميع أنواعه ثم استمر يقو بالتعليم الثانوي والجامعي حتى مطلع العصور الحديثة حيث عمدت قوى العدوان الخارجي الى سلب وظيفة التعليم واسندتها الى المدرسة الحديثة التي وفدت الى العالم الاسلامي في ركاب المستعمر والتي تختلف في أهدافها ومناهجها عن المدرسة الاسلامية التي عرفتها مساجد العالم الاسلامي.

والوظيفة الثالثة للمسجد هي القيادة والادراة التي برزت واضحة في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم ثم انتقلت الى مؤسسات خاصة ظلت تأتمر بتوجيهات القرآن الكريم والفقه الشرعي حتى أوائل القرن حيث أصابها ما أصاب التعليم على أيدي قوى الاستعمار.

أقسام المساجد

تقسم المساجد في الاسلام الى ثلاثة اقسام هي:

1- المساجد الثلاثة العظام وهي المسجد الحرام في مكة المكرمة والمسجد النبوي في المدينة المنورة والمسجد الأقصى في القدس. وتميز هذه المساجد الثلاث إنما هو بجعل وظائفها ينابيع الحياة الاسلامية وحمل رسالته الى البشرية انما ينطلق من هذه المساجد

2- المساجد الجامعة وهذه المساجد أقيمت في عواصم الاقطار الاسلامية مثل المسجد الاموي في دمش والازهر في القاهرة والزيتونة في تونس ومسجد قرطبة... . وهكذا

3- المساجد الفرعية المنتشرة في المدن والقرى وسائر التجمعات السكانية وفيما يلي تفصيل هذه الاقسام الثلاثة

المساجد الثلاثة العظام

1- المسجد الحرام في مكة: وهو أول مسجد وضع في الأرض كما قال تعالى: " إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً ". وفي الصحيحين أن ابا ذر قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أول مسجد وضع على الأرض قال: المسجد الحرام قلت: ثم أي قال: المسجد الأقصى قلت: كم بينهما قال: أربعون عاماً، ثم الأرض لك مسجد، فحيثما أدركتك الصلاة فصلِّ.". ثم جدد هذا البناء نوح عليه السلام ثم تعطل البيت لعوامل الانهيار، فجدد بناءه ابراهميم وابنه اسماعيل عليهما السلام وهو ما تشير اليه الآية: " وإذ برفع ابراهيم القواعد من البيت ". ولقد أعيد بناؤه قبل البعثة بخمس بخمس سنوات وشارك به الرسول صلى الله عليه وسلم ثم جدد ثانية زمن الفتح الاسلامي لمكة، وثبت حدود الحرم الخليفة عمر حيث جعله ثلاثة أميال من طريق المدينة، وستة أميال من طريق اليمن، وسبعة أميال من جهة الطائف والحكمة من تحديد حدود الحرم لالتزام ما ثبت له من الأماكن أن الحدود انوار ربانية من الهالم الأعلى وأهل المشاهدات. وثمة ملاحظة أخرى وهبي أن لفظ ( المسجد الحرام ) لا يطلق على البيت في القرآن الكريم الا على موضوع متعلق بالرسالة. أو ان لفظ بيت الله الحرام كان يطلق عليه قبل نزول الوحي عليه صلى الله عليه وسلم، أثرى ان الحكمة هنا – كبيرة وكبيرة – لإنها تتوثب للمجيء الى.

ولقد اختص الله سبحانه وتعالى المسجد الحرام بصفات لم تتوفر لغيره من المساجد منها الاولى: فلقد تكرر ذكره في القرآن الكريم في خمسة عشر موضعاً وهي:

- ستة في سورة البقرة:

- قال تعالى: قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون البقرة، الآية: 144.

- وقال تعالى: ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وإنه للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون البقرة، الآية: 149.

- وقال تعالى: ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشوني ولأتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون البقرة، الآية: 150.

- وقال تعالى: واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين البقرة، الآية: 191.

- وقال تعالى: وأتموا الحج والعمرة لله فإن أحصرتم فما استيسر من الهدي ولا تحلقوا رءوسكم حتى يبلغ الهدي محله فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك فإذا أمنتم فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدي فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام واتقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب البقرة، الآية: 196.

- وقال تعالى: يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون البقرة، الآية: 217.

- في سورة المائدة موضع:

- وقال تعالى: يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدي ولا القلائد ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا وإذا حللتم فاصطادوا ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب المائدة، الآية: 2

- في سورة الانفال موضع:

- قال تعالى: وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون الأنفال، الآية: 34.

- في سورة التوبة ثلاثة مواضع:

- وقال تعالى: كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين التوبة، الآية: 7.

- وقال تعالى: أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين التوبة، الآية: 19.

- وقال تعالى: يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم التوية، الآية: 28.

- وقال تعالى: سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير الإسراء، الآية: 1.

- وقال تعالى: إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم الحج، الآية: 25.

- وقال تعالى: هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدي معكوفا أن يبلغ محله ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما الفتح، الآية: 25.

- وقال تعالى: لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا الفتح، الآية: 27.

والصفة الثانية ان الله اختصه – المسجد الحرام – بالحج كل سنة بحيث لا يخلو سنة من الحجاج

والصفة الثالثة: أن الدعاء في حرم مكة مستجاب

والرابعة: أن الصلاة في المسجد الحرام تعدل مأئة الف صلاة فيما سواه من المساجد ولا يقف الأمر عند الصلاة وانما يشمل جميع اشكال الطاعة والعبادة. لذلك قال صلى الله عليه وسلم: " من ادرك شهر رمضان بمكة وصامه وقام ما تيسر له كتب له مائة الف شهر رمضان. وذهب جماعة من العلماء أن السيئات تضاعف بمكة كما تضاعف الحسنات ومن ذكر ذلك ابن عباس واحمد بن حنبل وابن مسعود وغيرهم وعندما سئل ابن عباس عن مقامه في بالطائف بغير مكة قال: مالي ولبلد تضاعف فيه السيئات كما تضاعف فيه الحسنات.

والصفة الخامسة: ان العقاب في مكة على الهم بالسيئات وإن لم يفعلها. قال تعالى: ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب اليم" وهذا ما فعله الله تعلى باصحاب الفيل. فلقد اهلكهم قبل الوصول الى الحرم. ولقد قال ابن مسعود: ما من بلد يؤخذ فيه الهم قبل الفعل الا مكة ومن نفس المنطلق كره جماعة من الائمة الاقامة في مكة وبيوتها

والصفة السادسة: ان الانسان اذا مات بمكة لا يجوز نقله الى بلاد اخرى

السابعة: انه يحرم اخذ شيء من طيب الكعبة للتبرك

الثامنة: ان بيع اشجار الحرم باطل حرام الا ان يقطع للدواء

التاسعة: لا يجوز بيع بيوت مكة وكراؤها لقوله صلى الله عليه وسلم: مكة حرام وحرام بيع رباعها وحرام اجر بيوتها" ولذلك كان عمر بن الخطاب يأمر بنزع ابواب مكة اذا اوفد الحجاج وكتب عمر بن عبد العزيز الى عامله بمكة: ان ينهى اهلها عن كراء دورها واذا جاء الحجاج فان ذلك لا يحل لهم.

وعن مالك بن انس. ان الناس كانوا يضربون فساطيطهم بدور مكة لانها هم احداً واصبحوا بان الله اطلق على مكة كلها مسجداً بقوله **{سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ}** [الإسراء: 1]

الصيد في مكة حرام وقطع الشجر والحبس فيها حرام لقوله صلى الله عليه وسلم: ولا ينفر حديدها ولا يقطع خشبها

ولا يجوز اخذ لقطة مكة والحرم للتملك وانما تؤخذ للتعريف

تحريم القتال

لا يدفن في مكة كافر

ان يبدأ بزيارة مكة ثم المدينة

يملك تنزل الى الارض وتبدأ بالطواف

أن الدجال لن يدخلها – كما ورد في الصحيح لقوله صلى الله عليه وسلم: حدثنا النبي صلى الله عليه وسلم يوما حديثا طويلا عن الدجال " كذا ورد من هذا الوجه مبهما وقد ورد من غير هذا الوجه عن أبي سعيدما لعله يؤخذ منه ما لم يذكر كما في رواية أبي نضرة عن أبي سعيد أنه يهودي وأنه لا يولد له وأنه لا يدخل المدينة ولا مكة أخرجه مسلم، وفي رواية عطية عن ابن أبي سعيد رفعه في صفة عين الدجال كما تقدم وفيه: ومعه مثل الجنة والنار، وبين يديه رجلان ينذران أهل القرى، كلما خرجا من قرية دخل أوائله. أخرجه أبو يعلى والبزار وهو عند أحمد بن منيع مطول وسنده ضعيف، وفي رواية أبي الوداك عن أبي سعيد رفعه في صفة عين الدجال أيضا وفيه معه من كل لسان، ومعه صورة الجنة الخضراء يجري فيها الماء وصورة النار سوداء تدخن.

أن احتكار الطعام وحاجات الناس في مكة معصية والحاد

خصائص المسجد الحرام وما يفعل فيه **{ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا }** [البقرة: 114] والخراب شكل من اشكال محاربة رسالة المسجد وصرف الناس عنها باشاعة اللهو، ومن السذاجة ان يتصور العقلاء ان الخراب المقصود هو بالدرجة الاولى خراب البنيان وليس خراب رسالة المسجد التي اقامه الله من احكام بل تزيين المساجد وزخرفتها درجة فقد عده رسول الله صلى الله عليه وسلم من علامات الساعة والنجاة من الفتن فيدور الناس في تلك الحجارة التي طرزت وينسون كلام الله وحقيقة العبادة التي امروا بها ان خراب المسجد في فرض الحذر السري عن ذكر الله ذكراً قلبياً وثقافياً وسلوكياً وتشريعي وجميع اشكال الذكر التي تجعل الناس لا يخشون الا الله ولا يعتمدون الا على الله ولا يدينون الا بدين الله شعارهم في ذلك قوله تعالى: **{ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ}** [آل عمران: 26].

ان خراب المساجد ان تتحول الى مساجد ضرار لتفريق صفوف المسلمين وارصاداً لحرمات المؤمنين وتتعاقب فيها حركات... .......... ثم تتحول عبادة الله سبحانه الى ارهاب وطاعته الى تطرف الذين يخربون رسالة الدين بهذا الشكل ما كان

وروى الطبراني في الاوسط عن ام هانئ قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ان امتي لن يزالوا بخير ما اقاموا شهر رمضان قيل: يا رسول الله وما خزيهم في اضاعته؟ قال: انتهاك المحارم فيه من عمل فيه زنا او شرب خمر لعنه الله ومن في السماوات الى مثله من الحول فان مات قبل ان يدرك شهر رمضان فليست له عند الله حسنة يتقي بها النار، فاتقوا شهر رمضان فان الحسنات تضاعف فيه ما لا تضاعف في سواه وكذلك السيئات.

2- المسجد النبوي في المدينة المنورة

خصائص مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم وما يفعل فيه

أولاً: أنشأ هذا المسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم والمهاجرون والانصار الاولون المنتمون على حياد الامة الاسلامية كما اشتمل على أعضاء النبي صلى الله عليه وسلم وفي ذلك مزيد من الشرف على غيره ولقد امتاز مسجد النبي بصفات

ثانياً: تحريم صيدها وشجرها على المحل والمحرم مثل مكة لقوله صلى الله عليه وسلم: ان ابراهيم دعا لمكة واني حرمت المدينة

ثالثاً: يحرم نقل التراب من حرم المدينة وحجارة الى خارجة كما لا يجوز أخذ الأبار المعمولة من ترابها

رابعاً: يستحب المجاورة بالمدينة كما فيه من البركات ونيل الدرجات والكرامات

الخامس: ان الصلاة في مسجد النبي تزيد عن الصلاة في غيره بالف صلاة كما سبق ذكره

السادس: ان الله جعل ثواب زيارته كالعمرة في الثواب فقد قال صلى الله عليه وسلم: " من خرج على ظهر لا يريد الا الصلاة في مسجدي حتى يصلي فيه كانت بمنزلة حجة وأما العمرة فبزيارة مسجد قباء، فقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ان زيارة مسجد قباء والصلاة فيه كعمرة

السابع: يستحب الانقطاع في المدينة، فقد جاء المهاجرون الى المدينة يكرهون ان يموتوا بغيرها ويسألون الله عز وجل ان يتوفاهم بها، في صحيح البخاري من قول عمر بن الخطاب: اللهم ارزقني شهادة في سبيلك واجعل موتي في بلد رسولك ولقد قال صلى الله عليه وسلم: من استطاع ان يموت بالمدينة فليمت بها فإني اشفع لمن يموت فيها.

8 – اختصاص اهلها بمرابد الشفاعة والاكرام وفي معجم الطبراني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال: أول من يشفع له من امتي أهل المدينة ثم أهل مكة ثم اهل الطائف.

9- وجود البركة في صاعهم ومدهم ومكيالهم لإن النبي صلى الله عليه وسلم دعا لهم بالبركة فيه فقد ورد في صحيح مسلم قوله صلى الله عليه وسلم: اني دعوت في صاعها وفي مدها بمثل ما دعا به ابراهيم لأهل مكة

10- تخصيصها بالروضة التي بين القبر والمنبر ففي صحيح مسلم ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة

11- ان الدجال لا يدخلها كما لا يدخل مكة: حدثنا النبي صلى الله عليه وسلم يوما حديثا طويلا عن الدجال " كذا ورد من هذا الوجه مبهما وقد ورد من غير هذا الوجه عن أبي سعيدما لعله يؤخذ منه ما لم يذكر كما في رواية أبي نضرة عن أبي سعيد أنه يهودي وأنه لا يولد له وأنه لا يدخل المدينة ولا مكة أخرجه مسلم، وفي رواية عطية عن ابن أبي سعيد رفعه في صفة عين الدجال كما تقدم وفيه: ومعه مثل الجنة والنار، وبين يديه رجلان ينذران أهل القرى، كلما خرجا من قرية دخل أوائله. أخرجه أبو يعلى والبزار وهو عند أحمد بن منيع مطول وسنده ضعيف، وفي رواية أبي الوداك عن أبي سعيد رفعه في صفة عين الدجال أيضا وفيه معه من كل لسان، ومعه صورة الجنة الخضراء يجري فيها الماء وصورة النار سوداء تدخن

12- ان الطاعون لا يدخلها وهذا من خصائصها بسبب دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم

13- انها تنفي خبثها وتنقي طيبها بمعنى ان الاشرار يخرجون منها ولا يبقى فيها الا الاخيار.

خصائص المسجد الأقصى:

البركة: قال سبحانه: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ اْلأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ [ الإسراء 1 ]

و قال تعالى: ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى اْلأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾ [ الأنبياء 71]

و قال: ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى اْلأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴾ [ الأنبياء 81].

و الآيات في هذا كثيرة.

• فضل التعبد فيه - وسيأتي شرحه في المبحث الثاني -.

• قدم الوضع والبناء: حيث أنه المسجد الثاني الذي وضع في الأرض للعبادة كما في حديث أبي ذر المتقدم، وفيه: (( ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: الْمَسْجِدُ اْلأَقْصَى قُلْتُ: كَمْ كَانَ بَيْنَهُمَا؟ قَالَ: أَرْبَعُونَ سَنَةً )).

فهو مسجد عتيقٌ، لا يبعد عن البيت العتيق الأول في الوضع والتأسيس غير أربعين سنة، وهي مدة في تقادم الزمان وبعْدِه لا تعدّ!

• مهاجر إبراهيم عليه الصلاة والسلام إليه[[25]](#footnote-25)

• مسرى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إليه.

• معراج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - منه: قال ابن القيم:[[26]](#footnote-26) (( وصح أنه - صلى الله عليه وسلم - أسري به إليه، وأنه صلى فيه، وأمَّ المرسلين في تلك الصَّلاة، وربط البُراق بحلقة الباب، وعرج به منه )).

قبلة المسلمين الأولى: (( فإن النبي - صلى الله عليه وسلم - لما هاجر من مكة إلى المدينة صلى بالمسلمين ثمانية عشر شهرا إلى بيت المقدس، فكانت قبلة المسلمين هذه المدة، ثم إن الله حول القبلة إلى الكعبة، وأنزل الله في ذلك القرآن - كما ذكر في سورة البقرة -، وصلى النبي –صلى الله عليه وسلم- والمسلمون إلى الكعبة وصارت هي القبلة، وهي قبلة إبراهيم وغيره من الأنبياء ))[[27]](#footnote-27).

• الرحالُ تشد إليه للعبادة: ففي (( الصحيحين )) عن أَبي سَعِيدٍ الخُدْرِي وأَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهُ عَنْهُما عَنِ النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم - قَالَ: (( لا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلاَّ إِلَى ثَلاثَةِ مَسَاجِدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَسْجِدِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَسْجِدِ اْلأَقْصَى )).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[[28]](#footnote-28): (( وهو حديث مستفيض متلقى بالقبول، أجمع أهل العلم على صحته وتلقيه بالقبول والتصديق )).

و قال[[29]](#footnote-29): (( وليس ببيت المقدس مكان يقصد للعبادة سوى المسجد الأقصى ))

و قد ذكر رحمه الله شيئا لطيفا في حكمة شد الرحل إلى هذه المساجد الثلاثة، حيث قال[[30]](#footnote-30):(( فلما كانت الأنبياء عليهم السَّلام تقصد الصَّلاة في هذين المسجدين شرع السفر إليهما للصلاة فيهما والعبادة اقتداء بالأنبياء عليهم السَّلام وتأسيا بهم، كما أن إبراهيم الخليل عليه السَّلام لما بنى البيت، وأمره الله تعالى أن يؤذن الناس بحجه، فكانوا يسافرون إليه من زمن إبراهيم عليه السَّلام.. )).

• مبعث الأنبياء في أرضه[[31]](#footnote-31): والمراد غالبهم، وقد صلت فيه الأنبياء من عهد الخليل..، وصلى فيه من أولياء الله ما لا يحصيه إلا الله سبحانه[[32]](#footnote-32).

• ملك نبينا - صلى الله عليه وسلم - بها وعموده وكتابه.

• مقر الطائفة المنصورة من أمته.

• مسجدُ نبيّ: قال شيخ الإسلام[[33]](#footnote-33) عن المساجد الثلاثة: (( فكل من المساجد الثلاثة بناه نبي كريم ليصلي فيه هو والناس )).

و قال: (( فالسفر المستحب ليس إلا إلى مسجدين بناهما نبيان )).

• قسم الله بأرضه: في قوله تعالى ﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴾، قال شيخ الإسلام[[34]](#footnote-34): (( فأقسم بالتين والزيتون، وهو الأرض المقدسة الذي ينبت فيها ذلك، ومنها بعث المسيح، وأنزل عليه فيها الإنجيل )).

و قال في موضع آخر[[35]](#footnote-35): (( فقوله تعالى: ﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ. وطُورِ سِينِنَ. وهذَا البَلَدِ الأَمِينِ ﴾ إقسام منه بالأمكنة الشريفة المعظمة الثلاثة، التي ظهر فيها نوره وهداه وأنزل فيها الثلاثة: التوراة والإنجيل والقرآن، كما ذكر الثلاثة في التوراة[[36]](#footnote-36) بقوله: (( جاء الله من طور سينا وأشرق من ساعير واستعلن من جبال فاران )) اهـ.

• حصن المؤمنين من الدجال: قال ابن القيم[[37]](#footnote-37): (( وصح عنه - صلى الله عليه وسلم -: أن المؤمنين يتحصنون به من يأجوج ومأجوج )).

قلتُ: وهو يشير إلى حديث سمرة، وفيه: (( وإنه - أي: الدجال - سيظهر على الأرض كلها إلا الحرم وبيت المقدس، وإنه يحصُرُ المؤمنين في بيت المقدس )).

و الحديث: أخرجه الإمام أحمد (20190) وابن خزيمة (1397) وابن حبان (2856) والروياني (847) وأبويعلى في (( مسنده الكبير )) – كما في (( الإصابة )) (7/52 ) – ومن طريقه: الضياء في فضائل بيت المقدس ( 35) - والطبراني ( 6797 و6798 و6799 ) والحاكم (329-331) وعنه: البيهقي (3/339) من طريق الأسود بن قيس عن ثعلبة بن عِبَاد عن سمرة به مطوَّلا، وفيه الجملة المذكورة.

و أخرجه الإمام أحمد ( 20172 و20200و20203و20204و20233و20281 ) والشافعي في (( السنن )) ( 143) والبخاري في (( خلق أفعال العباد )) ( ص:92 – ط عميرة ) وفي (( التاريخ )) ( 2/174) – ولم يسق لفظه - وأبوداود ( 1184) والترمذي ( 562) والنسائي ( 1484 و1501 ) وفي (( الكبرى )) ( 1869 و1888 ) وابن ماجه ( 1264) وابن أبي شيبة ( 8313 و8329و25853) والبغوي في (( الجعديات )) ( 2658) والروياني ( 843) والطحاوي في (( شرح المعاني )) ( 1/329و 332-333) وغيرهم من طرقٍ عن الأسود به مختصراً.

قال الترمذي: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

و صححه أيضاً: ابن خزيمة وابن حبان وابن السكن والحاكم.

و قال ابن حجر في (( الإصابة )) (7/52 ): (( حديث صحيح )).

قلت: والحديثُ سندُه جيدٌ، رجاله كلُّهم ثقاتٌ، غير ثعلبة فهو صدوق، وقد جهَّله ابن المديني والعجلي وغيرهما، ولا يضيره هذا شيئا، فالجهالة وصفٌ يجامع الثقة والضعيف، وقد شرحتُ هذا بالتفصيل في جزءٍ خرجتُ فيه هذا الحديث، وبينتُ حالَهُ: ضمْنَ كتابي: (( بلغة الحثيث من أجزاء الحديث )).

• أرض المحشر والمنشر، كما أشير إليه في القرآن، وثبت في الحديث - وستأتي الإشارة إليه -، قال شيخ الإسلام ابن تيمية (4): (( والشام إليها يحشر الناس كما في قوله تعالى: ﴿ لأول الحشر ﴾ نبه على الحشر الثاني، فمكة مبدأ، وإيلياء معاد في الخلق، وكذلك بدأ الأمر، فإنه أسرى بالرسول - صلى الله عليه وسلم - من مكة إلى إياياء، ومبعثه ومخرج دينه من مكة، وكمال دينه وظهوره وتمامه حتى يملكه المهدي بالشام، فمكة هي الأول، والشام هي الآخر في الخلق والأمر في الكلمات الكونية والدينية

وظائف مقترحة للمسجد في العصر الحديث

رسالة المسجد

لم تزل وقائع الاجتماع البشري تقدم الدليل تلو الدليل على ان الانسان حين يزيغ عن السلوك القويم، ويمضي في سبيل الانحراف، يشيع الاضطراب والخوف في حياته، ويلفظه المجتمع ويتداعى لمعاقبته، ولا ينقذه من ذلك كله الا أن يثوب الى بيت الله الحرام ويرجع الى طريق الله وهداه، ولعل هذا ما يشير اليه قوله تعالى" وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا" (1 سورة البقرة الآية 125)، فإذا كانت الآية الكريمة تشير الى بيت الله الحرام فما ذلك الا لأنه منبع الهداية والطمأنينة، في جنباته تفجرت ينابيع الحق ومنه انطلقت رسالة الهدى والامن لتتوزع في بيوت الله المنتشرة في الارض كافة.

وحين ننظر في واقع الحياة اليومية لا يصعب علينا ان نتبين علة قوله صلى الله عليه وسلم: " وأحب البلاد الى الله تعالى مساجدها وأبغض البلاد الى الله تعالى اسواقها " ( 1 صحيح مسلم ). لإنه اذا كانت الاسواق مزالق للناس يقترفون فيها الغش والجشع والاحتكار والكذب والخداع ويطففون المكيال وينقصون الميزان ويتنكرون للقيم ويقطعون ما امر الله به أن يوصل، فإن الممساجد هي المثابة التي يتطهرون فيها من ادران ما يقترفون، ويعود لهم صفاؤهم وطهرهم الذي عدت عليه الأغراض والحظوظ، ولوثته الاهواء والشهوات.

وانطلاقاً من هذه السنن الالهية الربانية اجتماعية ارتبطت نشأة المجتمع الاسلامي بالمسجد ارتباطاً وثيقاً، فقد كان أول عمل قام به النبي صلى الله عليه وسلم عند وصوله الى مشارف المدينة المنورة هو تأسيس مسجد قباء، وعندما دخلها بنى مسجده وعمل فيه بنفسه، ثم جعله مركزاً للعبادة والتعليم والادراة والقيادة، واستمر الوضع كذلك زمن الخلفاء الراشدين من بعده، وعندما خرج المسلمون الى العالم أصبح بناء المسجد في الاقططار المفتوحة من دعائم الاستراتيجية الاسلامية، ويذكر الطبري والبلاذري أن المسجد أول شيء خط في الكوفة وانهم بنوه كالمسجد النبوي مربعاً في حدوده وجعلوه وسط المدينة حيث تفرعت الطرق والدروب، وكذلك فعل قبة بن نافع حين اختط مدينة القيروان فبدأ ببناء المسجد الجامع ودار الامارة ثم اختط الناس حولها الخطط والدور. وكذلك بنيت البصرة سنة 16 هـ حيث انشيء المسجد أولا والى جواره دار الامارة وحولهما خطط القبائل، وكان عمر رضي الله عنه يكتب الى قادة الفتح الاسلامي أن يجعلوا اقامة المسجد في رأس الاعمال التي يبدأونها، ومضى الامر على هذه السياسة طوال العهود الاسلامية فاستمر المسجد مكاناً جامعاً للعبادة والتعليم، وداراً للقضاء، ومركزاً للإدارة ومنزلاً لإستقبال السفراء، وقيادة توجه منها الجيوش. وما ازدهر قطر من أقطار الاسلام الا كان المسجد احد العوامل الرئيسية التي منحته مكانته وعلو قدره، كما هو الحال بالنسبة للأزهر في مصر، والقيروان في تونس، والمسجد الاموي في الشام، وجامع المنصور في العراق، وجامع قرطبة في الاندلس، وهكذا في مختلف ديار الاسلام.

ومنذ أواخر القرن السادس الهجري أخذت تعصف بالعالم الاسلامي أسباب الضعف في الداخل والخارج.

ففي الداخل ركدت الححياة العلمية والحضارية، ولم تستطع العناصر التي تولدت زمام القيادة الاسلامية ان تحرك هذا الركود لانها كانت عناصر ناقصة التكوين لم تصل دور النضوج الحضاري، ولذا استمر الركود وتطور الى جود في مجالات الحياة المختلفة.

أما في الخارج فقد تعرض العالم الاسلامي لغارات المغول والتتار التي دمرت كثيراً من مظاهر النشاط العلمي والفكري وزلزلت أركان الحياة اجتماعية والاقتصادية، ثم تلا ذلك هجمات الصليبين من الاسبان والبرتغال على المغرب الاسلامي ومصر ومضيق باب المندب وسواحل الجزيرة العربية. فمهد ذلك كله الى نجاح الاستعمار الاوروبي الذي استطاع ان يفرط دولة الخلافة وينسف وحدة العالم الاسلامي ويتقاسم اقطاره. ولقد تبع ذلك سياسة استعمارية معينة قامت على محاربة القيم الاسلامية وابعاد شريعة الاس عن ميادين الحياة واستبدل بالقوانين والنظم الاوروبية. ولتحقيق ذلك لم تمكن الدوائر الاستعمارية المجتمعات الاسلامية من تطوير مؤسسات التعليم والتوجيه القائمة وبعث التجديد فيها، وانما عمدت الى اقامة مؤسسات جديدة على النمط الاوروبي لتعد الناشئة لممارسة الوان الحياة الاوروبية المختلفة، فانعكس اثر هذا كله فيما انعكس على دور المسجد في المجتمع المعاصر، فتقلصت اختصاصات ه وانحسر دوره ليصبح مكاناً يؤمه في الغالب رجال مسنون يؤدون فيه الصلاة ولا شيء سواها.

لذلك كان الواجب على العاملين في الحقل الاسلامي والمهتمين باوضاع المسلمين اذا ارادوا الخروج من اطار النظرية الى التطبيق ومن العزلة الى التوجيه الشعبي ان يضعوا في صلب اعمالهم أن تعود للمسجد هيمنته الفكرية واجتماعية والثقافية في عصر أبرز ما تحتاج البشرية اليه أن تؤوب الى رشدها وأن تجد الامن من المخاطر التي اثارتها عليها طرائق الحياة التي سارت فيها منذ قرون.

ولتعود مكانة المسجد وهيمنته بالشكل الذي مر ذكره لا بد من أمرين:

الأمر الأول: إدارة واعية تمثل فئات البيئة المحلية وتحيط بأوضاعها وحاجاتها وتعرف كيف تربط بين المسجد وبينه باساليب ووسائل تجعل البيئة المذكورة تسترشد بتعاليم المسجد في جميع نشاطاته اجتماعية والوان حياته اليومية.

والأمر الثاني: تنظيم دقيق بين إدارات المساجد القائمة في المجتمع كله بحيث يؤدي هذا التنظيم إلى تعاون الإدارات المذكورة والى تبادل الخبرة فيما بينها، والمساهمة في تحقيق الاهداف العامة التي توجه اليها تعاليم القرآن ورسالة الاسلام.

وفيما يلي نموذج للإدارة المقترحة والوسائل والاساليب التي تستعملها والنشاطات التي تمارسها مع مراعاة تطوير هذه جميعها كلما اقتضت الظروف والحاجات.

تكوين لجنة المسجد

ينبغي أن يكون لكل مسجد لجنة خاصة تزوده بالمتطلبات التي تمكنه من أداء رسالته وتدير النشاطات التي تنبثق عنها ويراعى أن تشكل هذ اللجنة من عناصر مؤهلة لرسالتها وممثلة لبيئتها التي تكون فيها لتتمكن من الاحاطة بواقع البيئة المحلية وتحقق متطلباتها وحاجاتها الارشادية ولذلك يستحسن أن تكون من العناصر التالية:

1- ممثل عن الهيئات الادراية كالبلدية والبريد وغير ذلك أن وجدت

2- ممثل عن المدارس القائمة

3- ممثل عن التجار وأرباب الحرف

4- ممثل عن الطلاب من المستوى الجامعي أو الثانوي

5- خطيب المسجد أو إمامه

6- ثلاثة من المعروفين باهتماماتهم الاسلامية

7- ممثلة عن النساء ( شريطة ان تكون متعلمة وممن تعدين سن الشباب إن وجدت)

مهام اللجنة

ينبغي أن تتركز المهام المذكور حول أهداف تقتضيها طبيعة المرحلة اجتماعية التي يمر بها كل من المجتمع العام والبيئة المحلية وكلما تطورت الاوضواع في المجتمع أو البيئة المذكورين عملت اللجنة على تطوير أهدافها لتلائم الاوضاع الجديدة، فمثلاً يمر المجتمع الحاضر في مرحلة اجتماعيةتكاد تكون القيظم المادية والفردية والمحاور العائلية والاقليمة وانفراد الرجل بالمسؤولية دون النساء والشباب هي الحركات العملية للحياة اجتماعية القائمة لذلك يمكن ان تتركز الاهذاف الخاصة بهذه المرحلة في أمور محددة هي: - هيمنة القيم الاسلامية وتوفير الروح الجماعية والانتماء الاسلامي والمشاركة العامة للرجال والنساء وخاصة الشباب في تحمل المسؤولية في الدور الذي حدده له الاسلام ويمكن أن تقسم مهام اللجنة الى الأمور التالية:

المهام الدينية:

تتمثل هذه المهام في النشاطات التالية:

1- الاشراف على تعليم القرآن الكريم والحديث الشريف. وهذه المهمة شدد عليها النبي صلى الله عليه وسلم، فعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: " خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن في الصفة فقال: ايكم يحب ان يغدو كل يوم الى بطحان أو الى العقيق فيأتي بناقتين كوماوتين في غير اثم ولا قطيعة رحم؟ فقلنا يا رسول الله كلنا يحب ذلك. قال: افلا يغدو احدكم الى المسجد فيعلم أو يقرأ آيتين من كتاب الله خير من ناقتين، وثلاث خير من ثلاث، واربع خير له من اربع، ومن اعدادهن من الإبل" ( 1 رواه مسلم ) وقال ايضاً: " اقروا القرآن فانه ياتي يوم القيامة شفيهاً لإصحابه" (2 رواه مسلم ) وقال سيدنا عمر رضي الله عنه: اما ان نبيكم صلى الله عليه وسلم قال: ان الله يرفع بهذا الكتاب اقواماً ويضع به آخرين (3 رواه مسلم ). لذلك تقوم اللجنة بتنظيم برنامج اسبوعي لتعل القرآن الكريم والحديث الشريف باسلوب ميسر يركز على المفاهيم المتعلقة بالحياة، وتحدده حاجات الفرد المسلم في ميادني العبادة والاجتماع، ويراعى ان تستفيد اللجنة من امكانتها المحلية المتمثلة في خطيب المسجد وامامه ومعلمي المدارس وغيرهم. كما يمكن أن تستعين بالخبرات المتوفرة لدى اللجان أو المؤسسات الاسلامية الاخرى، ويراعى ان تتم هذه العملية في أجواء شيقة كالأحتفالات بمن يختم القرآن الكريم أو يحفظه وتقديم الجوائز في حفلات التخريج.

2- العمل على اشاعة روح التدين الجماعي وتطبيق الشعائر بين أواسط الحي أو المدينة أو القرية، لان المفهوم الذي يشيع بين المسلمين في الوقت الحاضر عن التدين هو مفهوم فردي يتلخص في أن يؤدي الفرد المسلم صلاته وصيامه ثم ينصرف لشئونه الخاصة دون اهتمام بما يدور حوله، وقاعدته في ذلك ليصلح من يصلح ويفسد من يفسد وأمر الجميع الى الله. وما تأخر المسلمون الا يوم انتشر هذا المفهوم ذلك أنه مفهوم خاطئء يخالف المبادئ الاسلامية ويصطدم مع سنن الاجتماع. اما انه يخالف المبادئ الاسلامية فلان أمر هذا الدين يقوم على منطق الجماعة في تفصيلاته النظرية وتطبيقاته العملية ويبين القرآن الكريم ضرورة هذا التدين الجماعي وحكمته في أواخر سورة الانفال، فيقرر ان الايمان الحق انما يتحقق حين تتلاحم صفوف المؤمنين ويوالي بعضهم بعضاً، لان الكافرين بعضهم اولياء بعض تتلاحم صفوفهم وتتظافر جهودهم لنصرة الباطل فاذ لم يقابلهم المؤمنين بتلاحم أشد ملك الكافرون زمام الامر وتولوا القيادة البشرية وملؤوا الارض بالفتنة والفساد الكبير. ويحدد الرسول صلى الله عليه وسلم هذا التدين الجماعي حين يشبه المجتمع الاسلامي بالقوم االذين ركبوا في سفينة، فاذا راعوا مصلحتهم العامة وهم يتناولون حااجاتهم من الماء نجوا وعبروا اليم بأمان، اما اذا انطلق كل حسب هواه يخرق السفينة من جهته غرقت السفينة وهلكوا.

المهام الثقافية

لا يقتصر دور المسجد في الاسلام على اداء العبادات وانما هو مكان علم وتعليم. والاسلام يجعل العلم من دعائم الايمان قال تعالى: " انما يخشى الله من عباده العلماء " ( 1 فاطر 28 ) وقال ايضاً: " والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا " (2 سورة ال عمران 7 )

والعلم كذلك من ضوابط المجتمعات واسباب التوازن والاستقرار، والجهل من اسباب الفوضى والاضطراب، وفي ذلك يقول صلى الله عليه وسلم: " يقبض العلم ويظهر الججهل ويكثر الهرج. قيل يا رسول الله وما الهرج؟ قال هككذا بيده فحرفها كأنه يريد القتل ( 1رواه البخاري ).

ولذلك كان من مهام لجنة المسجد القيام بما يلي:

1- تزويد المسجد بمكتبة مناسبة شريطة أن يراعى في تنظيمها واستعمالها مختلف حاجات الرجال والنساء والاطفال بمختلف مستوياتهم الفكرية والثقافية ويجب ان تولي عناية خاصة للاطفال حيث يحشد في المكتبة العدد المناسب من القصص اجتماعية والتاريخية الاسلامية ثم يجري تأجيرها لهم بأجرة زهيدة ويمكن ان يصاحب ذلك تقديم بعض القصص كجوائز لأوائل المطالعين والمترددين على المكتبة وان ينظم ذلك في نهاية كل شهر ويمكن ان يرافق ذلك تعيين بعض المعلمين لتقديم ددروس مدرسية في المواد التي يحتاج الطلاب ان يقووا فيها، كوسيلة لاستدراجهم الى المسجد حيث يشاركون في الصلوات ويحضرون مختلف الدروس الدينية والمحاضرات وبذلك يتوفر لهم بعض اسباب التردد على المسجد فيألفونه ويشاركون في اداء الصلوات فيها.

2- تخصيص قاعة تضم المكتبة وتزود بالاثاث اللازم الذي يمكن روادها من الجلوس خارج اوقات الصلاة للمطالعة والتاول ف أمور عامة ذات صلة بالحياة العملية والثقافية واجتماعية والاقتصادية. ولعل ف ذلك ضوابط واقية من قضاء الاوقات في القاهي ومحلات التجارة واماكن اللهو وخاصة الشباب الذين هم عرضة لذلك اكثر من غيرهم.

3- المحاضرات والندوات أمر هام في نشر الثقافة الاسلامية والرسول صلى الله عليه وسلم يقول: من دعا الى هدى كان له من الاجر مثل اجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا(1 صحيح مسلم ). لذلك تستطيع اللجنة أن تنظم برامج موقوته لالقاء محاضرات ودروس دورية يقدمها المؤهلون من الحي أو المدينة أو القرية أو يدعى لالقائها محاضرون من الخارج ويراعى في هذه المحاضرات والدروس أن تعالج موضوعات اسلامية وفكرية وحضارية لها طابع الجدية والواقعية والابتكار.

4- الاعداد لتيسير الثقافة النسائية واعداد النساء بما يؤهلن للدور الاسلامي الملقى على عاتقهن. ويراعى في ذلك انتداب ذوات المقدرة والخبرة والنشاط من المعلمات والطالبات الجامعيات والمثقفات للقيام ببعض النشاط الثقافي في حدود الاخلاق الاسلامية بغية تطوير قيادات نسائية ذوات كفاءات مناسبة. ان خطورة الدور الذي يمكن أن تلعبة المرأة المسلمة في المجتمع المسلم قد بدت في هذه الأيام أكثر من غيرها لاسباب:

الأول: - لم يعد الرجل المسلم قادراً على أداء دوره كاملاً في تربية ابنائه وبناته بسبب المسئوليات الكثيرة التي تنتزعه من البيت طوال النهار وغالبية الليل.

الثاني: - ان المرأة أصبحت من أهم العناصر التي تفضي على المجتمع طابعها واتجاهاتها وتؤثر فيه بقيمها ونشاطاتها.

الثالث:- ان هناك مسؤولية تقع على عاتق المرأة المسلمة أمام الله سبحانه وتعالى والرسول صلى الله عليه وسلم يقول: " النساء شقائق الرجال" (1 الترمذي، طهارة 82) ولقد عظمت هذه المسؤولية في هذا العصر الذي تعصف فيه اسباب الضلال والغواية بالناشئة أكثر من اي عصر مضى. ولذلك أصبحت الحاجة ماسة جداً للانتباه للأمر الالهي الذي يتتضمنه قوله تعالى: " قوا انفسكم واهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة " ( 2 التحريم 6) والذي يتضمنه قوله صلى الله عليه وسلم: الا كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته فالامير الذي على الناس راع وهو مسؤول عن رعيته والرجل راع على اهل بيته وهو مسؤول عن رعيته والمرأة راعية في بيت بعلها وهي مسؤولة عنهم والعبد راع على مال سيده وهو مسؤول عنه الا فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته" (3 البخاري ومسلم )

المهام اجتماعية

شدد الاسلام على الرقابة اجتماعية وجعلها من ضمانات استمرار المجتمعات قال تعالى: " وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون " (1 سورة هود 117)

والتعبير القرآني هنا لم يقل ( صالحون ) وانما ( مصلحون ) وبذلك يكشف عن قانون اجتماعي اساسي وهو أن المصلحون يتفاعلون مع التيارات والاحداث التي تجري في المجتمع ويكتشفون اسباب القوة فيدعمونها واسباب الضعف فيعالجونها ويقون مجتمعاتهم من عوامل الانهيار. اما اذا رضوا بأن يكونوا ( صالحين ) حولهم فلا يشاركون في دعم اسباب القوة ولا معالجة اسباب الضعف فان الكارثة حين تجيء تدهمهم مع من تسببوا بها بأفعالهم السيئة وممارساتهم الخاطئة. والى هذا يشير قوله تعالى: " وقطعناهم في الارض أمماً منهم الصالحون ومنهم دون ذلك " (2 الاعراف 167) وقوله ايضاً: " واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا خاصة " ( 3 الانفال 25 ). وعن عائشة رضي الله عنها قالت: " دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم فعرفت في وجهه أن قد حضره شيء فتوضأ ولم يكلم احداً فاتصلت بالحجرة استمع ما يقول فقعد على المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال: يا ايها الناس ان الله يقول لكم مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر قبل أن تدعوا فلا أنصركم، فما زاد عليهن حتى نزل" (1 رواه ابن ماجة وابن حبان في صحيحه وابن حجر في الزواجر).

وقال ايضاً: " والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر وتأخذن على يد المسيء ولتأطرنه على الحق أطرا، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ويلعنكم كما لعنهم " ( 2 رواه الطبراني /مجمع الزوائد)

ولذلك يمكن ان تقوم اللجنة بما يلي:

1- التصدي للأتجاهات التي تتسرب الى المحلات العامة كالاندية والمقاهي والسينما والمتاجر ومحلات البيع والمؤسسات القائمة او الى حياة الناس وعاداتهم وتقاليدهم ومعالجة ذلك بروح اسلامية ايجابية توجهها الحكمة والبعد عن التوتر والمواقف السلبية

2- معالجة المشاكل اجتماعية المحلية التي تفرزها تطورات البيئة المحيطة مثل مشكلات الشباب وغلاء المهور والعادات والتقاليد والزواج والويارة وتنمية الطابع الاسلامي ومنع ما ينافي الشريعة الالسامية

3- اقامة الحفلات المتنوعة ذات الطابع الاسلامي بغية تنمية الروح اجتماعية وان يجري تنظيمها حسب خطة سنوية محددة تتناسب مع الاعياد الاسلامية والمناسبات التاريخية ذات العلاقة بحوادث الوحي والسيرة النبوية والاحداث الكبرى في التاريخ الاسلامي وتراعي اللجنة ان تكسب هذه الاحتفالات ططابعاً تجديدياً تحقق المعاصرة والشمول فمثلاً تخصص احتفالات ذات طابع نسائي تركز على رائئدات العمل الاسلسامي خلال مراحل التاريخ في مختلفف الجهاد والعمل والبر واعمال الخير المختلفة ويراعى في ذلك تمكين النساء من الالتقاء والتعاون في اجواء من الحشمة والجد والبعد عن الشبهات ويمكن ان تقام حفلات يتم من خلالها تقديم بعض التثمثيليات والاناشيد الاسلامية ويرافقها تقديم هدايا معينة تتناسب مع القيم الاسلامية.

4- المساهمة في اقامة المؤسسات التي تساهم في ترسيخ القيم الاسلامية في نفوس الناشئة وتقيهم من آثار القيم والاتجاهات المخالفة، كأن تقام رياض اطفال اسلامية أو حديقة عامة يمارس الاطفال فيها الالعاب ويستعملون وسائل التسلية البريئة باشراف اسلامي واجر زهيد يعود لصندوق اللجنة.

5- تنظيم رحلات اسلامية لزيارة الجمعيات النشيطة أو الاماكن والمقدسات الاسلامية شريطة أن ينظم هذه الرحلات برامج محددة تتضمن دراسة أهداف الزيارة والنشاط الذي يمكن ان يتم خلال الرحلة.

6- التعرف على اصحاب المشكلات اجتماعية لمساعدتهم في حلها فلقد شبه الرسول صلى الله عليه وسلم المجتمع بالجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

المهام الاقتصادية:

لا يكفي ان نردد ان الاسلام دين يوازن بين متطلبات الروح والجسد وانما يجب ان يوجه هذا المبدأ الناشط الاسلامي نفسه والا اصبح هذا النشاط ايغالاً في المثاليات التي يصعب حمل الناس عليها ولا يتحملها الا السابقون الذين جعلهم الله تعالى ثلة من الاولين وقليل من الاخرين.

لذلك لا بد من اعتبار العوامل الاقتصادية في كل نشاط اسلامي ولقد وضح الرسول صلى الله عليه وسلم العلاقة بين العوامل الروحية والاقتصادية في ادق صورها حين روى في حديث قدسي عن الله تعالى: " انا انزلنا المال لاقام الصلاة وايتاء الزكاة " (1 رواه احمد ج5 بيروت المكتبة الاسلامية دار صادر ص219 الاتحافات السنية بالباحاديث القدسية الطبعة الثانية " القاهرة مكتبة محمد علي صبيح " ص 35 نقلاً عن احمد والطبراني في الكبير ). وبذلك يكون المعنى الذي يتجه اليه التفكير عند سماع هذا الحديث ان الله سبحانه وتعالى انزل المال لانفاقه في تجسيد المعاني التي تتضمنها الصلاة ولنشر ثقافتها وتهيئة الاجواء لتسود اتجاهاتها.

لذلك على اللجنة ان تعمل ما يلي:

1- تنظيم ميزانيات اللجنة من حيث:

أ‌- الايرادات كالهبات والتبرعات والاشتراكات وغير ذلك

ب‌- المصروفات للمكتبة والجوائز والمحاضرات والندوات والحفلات والمشروعات المختللفة

2- تنظيم جباية الزكاة من البيئة المحلية وانفاقها في الميادين التي نصت عليها الشريعة الاسلامية

3- التخطيط لمشروععات اقتصادية او مهنية او تدريبية تقيمها اللجنة في البيئة المحلية وحدها او بالاشتراك مع اللجان الاخرى في المدينة أو في المدن والارياف المجاورة.

المهام الادارية

التنظيم الاداري امر هام في الاسلام وهو بعض مظاهر الحكمة التي خص الله اناساً دون اناس ومن يؤت الحكمة فقد اوتي خيراً ككثيراً لذلك يجب على اللجنة ان تعمل ما يللي:

1- ادارة الننشاطات المختلفة وتنظيمها وتوفير المتطلبات اللازمة لتنفيذها

2- اقتراح البرامج والمشروعات لتي تحتاجها البيئة والاعداد لتنفيذها

3- تشكيل لججان فرعية وتوفير الطاقات البشرية اللازمة لادارة وتنفيذ كل المهام الثقافية والددينية واجتماعية والاقتصادية

4- عقد اجتماعات شهرية لددراسة المشكلات المختلفة واتخاذ توصيات والقرارات اللازمة بشأنها

5- انتخاب سكرتير دائم للجنة يتولى تنظيم الامور الادارية والدعوة الى الاجتماعات

6- تلقي الاقتراحات والتقارير المختلفة عن شؤون الحي ونشاطات اللجنة

7- المشاركة في اللقاء السنوي للجان المساجد في البلاد عامة

التنسيق بين لجان المساجد

ينبغي ان تقوم ادارة مركزية تنسق بين لجان المساجد في جميع المحافظات وتوفر لها اسباب النجاح والنمو وذلك بوسائل عملية كالتال

1- تقديم الخبرات العلمية والادراية والفنية وجميع ما تتوصل اليه البحوث والدراسات في هذا المجال مراعية في ذلك الاستفادة من جميع ما تتوصل اليه الخبرات الانسانية في وسائل الاتصال والاعلام والنشر والثقافة والتعليم

2- اقامة اجتماع سنوي للجان المساجد في البلاد عامة وتكون اهدافها ما يلي:

أ‌- تقويم النشاطات التي جرت في السنة التي مضت وتقدير نتائج التي حققتها والاثار التي احدثتها ايجاباً او سلباً

ب‌- تحديد الاهداف العامة للسنة المقبلة ويراعى ان تكون هذه الاهداف على مستويين، مستوى عام يستهدف الاوضاع اجتماعية في البلد عامة وهذه اهداف يقررها الاجتماع السنوي المذكور ومستوى خاص يعالج اوضاع البيئة المحلية ويراعى ان تكون هذه اهدافاً عملية سلوكية يسهل تطبيقها.

جـ- تحديد الاساليب والوسائل اللازمة للمرحلة القادمة. وهكذا يمثل هذا التنظيم وهذه المهام يمكن ان تعيد للمسجد مكانته وهيمنته ويعود المسلمون الى منهج السلف الصالح، في تلقي الاسلام وتمثيله فإذا تعلموا بعض ايات أو احاديث في المسجد وجدوا المجال خارجه لتطبيقها فيتعلمون العلم والعمل سواء ويجسدون قوله تعالىى: " ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتا " (1 سورة النساء66)

الفصل السادس

مؤسسات التربية السياسية

وهي تشمل ثلاثة مؤسسات

الأولى" قوم الرسالة " والثانية " شعوب النصرة " والثالثة " الأمة المسلمة ". أما تفاصيل هذه المؤسسات فهي كما يلي:

1- قوم الرسالة: وهو مصطلح يتكرر وتكرر مشتقاته في (385) موضعاً في القرآن الكريم. وما ذكره رسول من الرسل إلا واقترن الخطاب بإحدى صيغ ( القوم ) الذين أرسل إليهم، من ذلك قوله تعالى " وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم " (ابراهيم 4 ) وقوله " لقد أرسلنا نوحاً الى قومه فقال اعبدوا الله " ( الاعراف 59) وقوله " واتل عليهم نبأ ابراهيم إذ قال لابيه وقومه ما تعبدون " ( الشعراء 69-70) وقوله" وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه "( الانعام 83) وقوله " ولوطاً إذا قال لقومه اتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين " ( الاعراف 80) وقوله " واذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم " ( ابراهميم 6) وقوله " والى مدين اخاهم هوداً قال ياقوم اعبدوا الله " ( الاعراف 65) وقوله " والى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره " ( الاعراف 85) وقوله " والى ثمود اخاهم صالحا قال ياقوم اعبدوا الله " ( الاعراف 73) وقوله " وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسئلون " ( الزخرف 44). ولو تتبعنا المعاني اللغوية التي يتضمنها مصطلح " القوم " ومشتقاته لوجدناه كالآتي:

- القوم: الرجال دون النساء لقوله تعالى: " لا يسخر قوم من قوم عسى أن يككونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى ان يكن خيراً منهن " ( الحجرات 11).

- القائم في الملك: الحافظ أو كل من كان على الحق فهو القائم الممسكك به.

- القيّمة: الملة المستتقيمة لقوله تعالى: " وذلك دين القيمية " ( البينة 5)

- قوام العيش: ما يقيمه، ما يغني

- قوام الجسم: تمامه وطوله

- القيام: العماد في قوله تعلى: " ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما " ( النساء 5 ).

- قيّم القوم: ما يسوس أمرهم ويقوّمهم.

- وفي حديث حكيم بن حزام: باعيت رسول الله على أن لا أخرّ إلا قائماً. ( رواه النسائي في التطبيق، باب كيف يخر ساجدااً. رواه احمد في مسنده )

- قوام كل شيء: ما استقام له ( الخليل بن احمد الفراهيدي كتاب العين ج5 باب القاف والميم ص 230-233)

- وحين نتدبر موضع القوم في الخطاب القرآني وفي القواميس اللغوية يتضح لنا مدى الاحترام الذي يكنه هذا الخطاب للأقوام خاصة، وهو يطلق عليهم صفة الاخوة للرسل، مثل قوله تعالى: " أخاهم هودا" و" أخاهم صالحا" و" أخاهم شعيبا" بغية استنهاض هممهم واستثارة مكامن الخير في فطرتهم، ليقيموا دين الله في حياتهم، وليحملوا رسالته الى الأقوام الذين يلونهم، ثم من هؤلاء الذين يلونهم، وهكذا دواليك...!!.

وهذا ما فقهه جيل الصحابة رضوان الله عليهم، وطبقوه في الأقطار المفتوحة. وتلك سنة إلهية يتجلى فيها كرم الله سبحانه وعدله، لإنه أتاح – وما زال 0يتيح – لأقوام الكرة الأرضية أن يشاركوا في حمل الرسالة الإسلامية ونشرها. ومن هذه السنة انبثقت استراتيجية الفتوحات الاسلامية، مراعاة لخصائص الأقوام واختلاف طبائعهم وتنوع بيئاتهم وأحوالهم.

وكل بلد دخلته هذه الفتوحات، كانت هذه الاستراتيجية تمر بالمراحل الأربع الآتية:

اولاً: مرحلة دعوة الحكام والقادة والأقوام والشعوب لأعتناق الاسلام وتحرير شعوبهم من الجاهليات:

ولقد بدأ الرسول صلى الله عليه وسلم هذه المرحلة بعد أن ثبت دعائم دولته في جزيرة العرب، فأخذ في السنة السادسة للهجرة في إرسال رسل الى أمراء النواحي وملوك الدول المعاصرة، يعرض عليهم دعوة الاسلام، وأن يسمحوا للمسلمين بحرية الدعوة. ولقد سار الخلفاء الراشدون بعده على هذه السنة. وشروطهم الثلاثة التي اشتهرت في التاريخ معروفة، وهي اعتناق الاسلام، أو دفع الجزية، او القتال.

والباحث في القرآن الكريم والسنة الشريفة يرى تأكيداً مطلقاً على قيام المسلمين بواجب الدعوة الى الله، وأن بقاء الامة الاسلامية وعزتها ومنعتها مرهونة كلها بقيامها بهذا الواجب. والأقوام التي تتخلى عن هذه الوظيفة الإلهية، فإن الله سبحانه يستبدل بهم قوماً غيرهم، ثم لا يكونون أمثالهم، وإنما يجاهدون بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ولا يخشون فيه لومة لائم.

ولم يكن هذا الهدف مجرد شعر مسطور في الكتب، أو يلقى في الخطب والاحفال، وإنما جرت ترجمته الى استراتيجية مفصلة تبناها الرسول صلى الله عليه وسلم والتزمها الخلفاء، ووعاها القادة والجنود في المفاوضات والمعارك التي خاضوها، من ذلك ما ورد على لسان رعي بن عامر، أحد المفاوضين الذين بعثهم القائد سعد بن ابي وقاص رضي الله عنه – قبل معركة القادسية – إلى رستم قائد الجيش الفارسي، فقد سأله رستم: ما الذي جاء بكم؟ فأجابه ربعي: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد الى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا ال سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان الى عدل الاسلام.

وتذكر المصادر الاسلامية مفاوضاً آخر، هو المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، الذي فصل هذا الهدف وشدد عليه، حتى ضاق به رستم، وأرسل يطلب مفاوضاً غيره، فبعث سع وفداً أجرى مع رستم حديثاً طويلاً، تخلله عروض مادية وهبات عينية، تكفل رستم بدفعها للجيش الاسلامي، إلا أن جواب الوفد كان كالآتي: أتيناكم بأمر ربنا، وندعوكم الى الاسلام وحكمه، فإن أجبتمونا تركنا ورجعنا، وخلفنا فيكم كتاب الله، وإن أبيتم لم يحل لنا إلا أن نعاطيكم القتال أو تفتدوا بالجزية، فإن فعلتم، وإلا فإن الله قد أورثنا أرضكم وأبناءكم وأموالكم، فاقبلوا نصيحتنا، فوالله لإسلامكم أحب إلينا من غنائمكم.

ثانياً: مرحلة الجهاد لإزالة الحواجز التي وقفت في طريق الدعوة الاسلامية:

وهي مرحلة لازمة في حالة عدم فاعلية المرحلة الأولى. ولذلك كان لا بد من التصدي لمن يقف حاجزاً في سبيل الدعوة. وينتصب حامياً للشرك والفساد والظلم والاستبداد. ومن هذا المنطلق خرجت جيوش الفتح الاسلامي للقيام بهده المهمة الجليلة.

ثالثاً: مرحلة تزكية حياة الشعوب من الجاهليات، وإعدادها إعداداً إسلامياً:

كانت جيوش الفتح الاسلامي تتألف من قسمين:

فرق الجهاد العسكري، وعملها القضاء على الانظمة الحاكمة المتتسلطة.

وبعوث ثقافية، عملها تزكية العقائد والقيم والاخلاق، والعادات والتقاليد، وتوجيه الطاقات الفكرية والانتاجية وجهتها الصحيحة.

وقادة هذه البعوث الثقافية من أمثال عبد الله بن مسعود وأبي موسى الاشعري في العراق، ومعاذ بن جبل وأبي الدرداء في الشام، وعبد الله بن عمرو بن العاص في مصر.

وتطبيق هذه المرحلة كان يتم على خطوات. فكان المسلمون إذا فتحوا بلداً سارعوا الى تجفيف منابع الظلم والفساد، وإشاعة القيم والاخلاق الاسلامية.

ثم يعقب ذلك إقامة مدن وحواضر إسلامية تجسد القيم والاخلاق التي يدعوا اليها الاسلام في الثقافة والاجتماع والفنون والادارة وسائر مظاهر الحياة، وتؤسس فيها فيها المساجد وكتاتيب القرآن، والمدارس التي كانت بمثابة مراكز فكرية وتربوية وثقافية. تعلم الناس على اساليب العيش والتواصل طبقاً لمبادىء الدين الجديد بالقول والعمل.

ولم تتم هذه المرحلة دون تكاليف، فقد كانت مواجهة طويلة بين رسالة الإسلام وبين الجاهليات السابقة في كل بلد وصل إليه الفتح الاسلامي.

مواجهة شنتها الأرستقراطيات السابقة، وتسلحت بالاغتيال السياسي، وتارة بالعقيدة والفكر، وظهرت نحل وأحزاب تذرّعت بذرائع مختلفة، واستعملت أساليب متعددة، ولكن الحضارة الإسلامية خرجت منتصرة من هذه المواجهات، وهضمت شعوباً وأقواماً تخلت عن عقائدها وثقافاتها السابقة، واستبدلت بها عقيدة الاسلام وتطبيقاتها في القيم والانظمة المختلفة.

رابعاً: مرحلة نضوج الشعوب، وإسهامها في حمل رسالة الإسلام وتحرير الشعوب التي تليها من الجاهليات:

حرصت الاستراتيجية الاسلامية على امتصاص العناصر الحيوية من كل شعب وقومية، بعد أن يكتمل إعدادها إعداداً إسلامياً – كما مر في المرحلة السابقة – كما حرصت على توزيع الادوار بين الشعوب والأقوام المسلمة.

فلقد أعد الرسول صلى الله عليه وسلم عرب شبه الجزيرة العربية مقدار ثلاث وعشرين سنة، يحرر عقائدهم ويزكي نفوسهم من الخرافة والشهوات والرذيلة والخوف، ويدربهم على معاني القيادة الصالحة التي تبلغ رسالة الله سبحانه وتعالى، حتى إذا نضجوا حملوا لواء الإصلاح العالمي، ومضوا مجاهدين مقدار ربع قرن من الزمان، عاملين على اعداد الشعوب في كل من الشام ومصر والعراق وفارس، حتى اذا اكتمل إعداد شعوب الاقطار المذكورة تسملت الراية، ودخلت ميدان العمل، وساهمت في تبليغ الرسالة الى الأقطار التتي تليها، وشاركت في بناء الحضارة الاسلامية... . وهكذا عصور التاريخ الاسلامي.

والواقع أنه يصعب تقدير الحكمة التي اتصفت بها هذه الاستراتيجية. فبالاضافة إلى أنها تمد الرسالة الاسلامية بشعوب متجددة الحيوية والقدرات، فإنها تلائم الطبيعة الجغرافية للأقطار التي دخلها الفتح الاسلامي، فالشعب العربي سكان صحاري وقطاعات سهلية، حملوا لواء الدعوة حتى مشارف القطاعات الجبلية والبحرية، حتى سلموا الراية للشعوب المسلمة في فارس وشمال أفريقيا بعد نضوجها اسلامياً. حيث حملت الدعوة الاسلامية الى الشعوب التي تليها، دون أن تقف العوائق الطبيعية أمام هذه العناصر الجديدة، لإنها نشأت عليها وألفتها. وهي إستراتيجية تلائم الاستراتيجية العسكرية، فحين يقوم شعب بقيادة الفتح الاسلامي الى منطقة مجاورة فإن قواعده العسكرية والتموينية تكون قريبة ومأمونة الاتصال. كذلك يتوفر لهذه المراكز القواعد الشعبية التي تدعمها بالتأييد المعنوي والتعبئة العامة التي تحيل الشعب كله الى جيش مجاهد، ومعين لا ينضب من المجاهدين والمعلمين!!

والخروج على هذه الاستراتيجية ساهم في فشل المد الإسلامي في المناطق التي حدث فيها هذا الخروج، مثل الاندلس. ففي هذه البلاد اندفعت الجيوش الإسلامية التي جاءت من شمال أفريقيا وصحارى المغرب العربي فيما وراء جبال البرانس وجنوب فرنسا، وأثارت أوروبا للتحضر واليقظة، في وقت الذي أهملت فيه إعداد الشعب الأسباني إعدادً إسلامياً، لقد كان الواجب والصواب أن يتوقف فاتحوا الأندلس فيه ليركزوا على إعداد الشعب الاسباني، حتى إذا نضج، حمل الراية واندفع في قلب أوروبا. ولو تم ذلك لتغير وجه التاريخ العالمي.

إن وقوفنا على طبيعة هذه الاستراتيجية للفتح الاسلامي يجعلنا قادرين على تفسير عدة أمور تتعلق بالتاريخ الاسلامي الذي مرت وقائعه، ويساعد على تصويب مسيرة المجتمعات الاسلامية في المستقبل، وهذه الأمور هي:

الأمر الأول: لماذا انفرد العرب والمسلمون بقيادة الفتح الاسلامي والإدارة في الدولة زمن الخلفاء الراشدين والأمويين؟

الإسلامي دون غيرهم. ولقد أساء كثير من الؤرخين فهم هذه الظاهرة، فنسبوا إلى القيادة الأموية تهمة التعصب للعرب دون غيرهم، مستندين إلى ما قامت به هذه القيادة من تعريب للدواوين والإدارة واللغة والقيادة وغير ذلك، والواقع أن هذا الرأي يتجاهل – أو يجهل – الإستراتيجية الإسلامية. ذلك أن القيادة الأموية لم تعرب القيادة والإدارة، وإنما هو أمر انحدر إليها من عصر الراشدين، وله أسبابه العقائدية التي جعلت تعريب الدواوين واللغة أمر يأتي في صلب الاستراتيجية الاسلامية. واللغة العربية إنجاز إسلامي بالدرجة الاولى، والإسلام هو الذي رفعها لتصبح لغة، بعد أن كانت لهجة من اللهجات المنتشرة في الجزيرة العربية وبدونها لن تستطيع الشعوب التي دخلت ضمن نطاق المد الإسلامي أن تفقه مصادر الدين الجديد، وخاصة القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

والأمر الثاني: هو ارتباط المد الإسلامي بمدى توفر بيئة العدل والأخلاق الإسلامية، وهيمنة الروح الاسلامية على الفاتحين. ذلك أن مراحل الفتح – وخاصة مرحلة العمل على إخراج الشعوب من الجاهليات – تقتضي تجرد العناصر الفاتحة من رؤية الذات، والاخلاص للمبادئ الاسلامية، وإلا فقدت حركة الفتح الاسلامي مبرراتها ومزاياها التي تفردت بها، وأصبح تقبّل الشعوب الجديدة للعقيدة أمراً صعباً للغاية. وهذا الأمر الذي جرى إهماله في الأندلس، حيث شغل الفاتحون بخيرات البلاد المفتوحة، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض، وظلت تنال منهم العصبيات القبلية والعرقية، وظلوا عناصر غريبة في البلاد الجديدة التي لم تتذوقهم، إلا أن تم إخراجهم نهائيا.

والأمر الثالث: أن المد الإسلامي ارتبط ارتباطاً كبيراً بحيوية البعوث الثقافية، وبقائها ناضجة محيطة بأهدافها ورسالتها، محتفظة بمكانتها، حيث السلطان يدور في فلك القرآن، فالعصور الإسلامية، والبلاد التي شاهدت قيادات قرآنية ناضجة محتفظة بمكانتها، رسخت فيها الصبغة الاسلامية، وطبعت بطابع جديد في العقيدة والاجتماع والثقافة، وودّعت ماضيها الجاهلي إلى غير رجعة، أو ضعفت علاقاتها بهذا الماضي ضعفاً شديداً، بل إن بلاداً لم يدخلها سوى البعوث الثقافية والإسلامية – مثل شرق آسيا ووسط إفريقيا – رسخ بها الاسلام وضمّها تحت جناحه.

أما العصور التي شهدت ضعفاً في القيادات الفكرية، وصار السلطان يوجه حملة القرآن، فقد بقيت رواسب الجاهليات كامنة فيها، تنتظر الفرصة للنمو والانتعاش، كما حدث في شرق أوروبا والبلقان، فالعثمانيون الذين قدّرلهم أن يتسلموا قيادة الأمة المسلمة قبل مرحل النضوج الإسلامي، كانوا عناصر عسكرية، لم يقدروا قيمة البعوث الثقافية والفقه القرآني لإعداد شعوب شرق أوروبا إعداداً إسلامياً، سوى ما كان من تأثر بعض الجيوب بالحياة الاسلامية عامة. ولذلك عندما نضبت جهودهم، لم يخلفهم شعب ناضج في قيادة الحركة الاسلامية، وبقي مكانهم فارغاً، مما مهّد لعودة الغزو الأوروبي، وامتداده مرة ثانية إلى بقاع كثيرة من الديار الاسلامية والعلم عامة.

والأمر الرابع: إن الامة الاسلامية لم تستسلم لعوامل الضعف ومظاهر الركود والجمود، وما لم تكن لتنهار أمام الهجمات الصليبية أو المغولية بسبب ما كان – وما زال- يتردد ف كيانها من حركات التجديد والإصلاح. ومن هذه الحركات، الحركة التي أنجبت جيل نور الدين وصلاح الدين وأعادت القدس، مع أنها لم تحدث التغيير الذي يؤهل الأمة الاسلامية لانطلاقة جديدة تعيد لها مكانتها الحضارية ودورها القيادي في العالم كله.

والحركات الاصلاحية التي تلت، لم تقم أي منها بمراجعة شاملة للاضطراب الذي أصاب الأفكار والقيم ومناهج التفكير والنظم، لبلورة الرسالة القرآنية الي ترشد الى الطور التاريخي الذي تعاصره، ولا تزكي الاقوام من العصبيات والأهواء التي يقترفها مترفوا العصر وشياطينه، وإنما كانت – وما زالت – تكتفي بردود الافعال العشوائية الي تحركها الاخطار الخاريجية، الأمر الذي انتهى بحركات الاصلاح الى فريقين متنابذين: فريق الاسلاميين وفريق القوميين. وقد اقترف الطرفان خطأ التفريق بين رسالة الاسلام وقوم الرسالة، ودخلوا في معارك كلامية مع الفريق الثاني، مع أن التكامل بين الرسالة الاسلامية والقومية العربية والقويمة التركية والقويمة الإيرانية والقويمة الكردية والقومية الامازيقية وغيرهم من قوميات الشعوب الاسلامية، كان واضحاً تمام الوضوح عند أمثال عبد الرحمن الكواكبي وجمال الدين الافغاني وسعيد النورسي والامير عبد القادر الجزائري وعبد الحميد بن باديس وعلال الفاسي وحسن البنا. ص 443

أما الفريق الثاني- وجلهه من النخب الساسية والعسكرية – الذين اغتربت عقولهم وضمائرهم في أوروبا، من خلال التفريط التربوي والتعليمي، الذي نقل إعداد أبناء الأمة إلى أعدائها، فعاد هؤلاء الأبناء بقوميات تفرق بين رسالة الاسلام وقوم الرسالة، يستبدلون الرسالة الإسلامية بأهوائهم وشهواتهم، ويستبلدون قوم الرسالة بأقوام الجاهليات القديمة من الفراعنة والفنيقيين وآشور وعاد وثمود والأنباط، الذين دمر الله بنيانهم من القواعد، ليكونوا لمن خلفهم آية، ولعنهم في الدنيا والآخرة، يعتزون بهم بدل الإعتزاز بإنجازات أمثال أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وخالد بن الوليد من العرب! وأمثال عماد الدين ونور الدين ومحمد الفاتح من الأتراك! وأمثال صلاح الدين وابن الصلاح وابن تيمية من الأكراد. وحينما آلت هذه العصبيات القومية الى الهبوط والخسران، عادوا – في هذه الأيام – إلى الإنكفاء في أقاليمهم ودويلاتهم، للتفاخر بأبطال الرياضة، ونجوم الرقص والغناء.

لقد أساء الإسلاميون المعاصرون إلى الإسلام حين جردوه من القومية، وأساء القوميون إلى القومية حين حرموها من بصائر الإسلام، ثم كانت المحصلة هي ضعف الإسلام وخسران القومية، ووضع الشعوب الاسلامية في مواجهات مسلحة وزجها في فتن وحروب مزقت الامة الاسلامية وحرمت شعوبها من طاقاتها الهائلة الجبارة .

واعتقادي أن كلاً من الإسلاميين والقوميين أساؤوا الفهم لسببين اثنين هما:

السبب الأول: هو الجهل بالفرق بين القومية، والعصبية القومية، تماماً كالجهل بين القبلية والتعصب القبلي اللذين استعرضناهما فيما مر. (1 للتعرف على الفرق بين القبيلة والتعصب القبلي راجع مؤسسات التنشئة اجتماعية )فالقومية هي أن يحمل القوم الذين تبلغهم الرسالة – رسالة الاسلام – في التجديد والإصلاح. أما العصبية القومية، فهي حمية عاطفية بشرية، باعثها الأهواء التي تنتقل بالأفراد والجماعات من ولاية الأفكار إلى الولاء للأشخاص، ثم تنتهي بأهلها إلى مرض الصنمية التي عرفناها بأنها: تخلي الأفراد والجماعات عن حرياتهم وممتلكاتهم، من أجل مخلوق آخر، ثم التوسل إليه ليرد إليهم بعضاً منها.

والسبب الثاني: هو شيوع مناهج التفكير الجزئي بدل التفكير الشامل، والتقليد بدل التجديد، وغلبة الظن والهوى بدل التفكير العلمي.

لقد قاد التفكير الجزئي – كلاً من الاسلاميين والقوميين – الى التفريق بين " الرسالة" و" القوم" الذين يحملون الرسالة سواء أكان هؤلاء القوم هم العرب أو الاتراك أو الايرانيين أو الاكراد أو البربر وقادهم الى التراشق بقذائف الأجزاء الفكرية فوقفوا تحت حكم السنة الإلهية المتضمنه في قوله تعالى: " ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء" الانعام 159.

اما شيوع التقليد فقد حرمهم الاستفادة مما يسمعون وبصرون فأصبحوا مجرد أصداء لما يتردد عند غيرهم من الأمم والشعوب دون وعي بقوانين الاجتماع وسنن التاريخ.

وأما منهج – الظن والهوى – فقد جعلهم يستبدلون ( الرسالة ) بـ " اهوائهم " التي ترى للوقائع وجوداً غير وجودها، وللأحداث أسباباً غير اسبابها فظلموا أنفسهم ووقعوا تحت عمل السنة الالهية المتضمنة في قوله تعالى: " أفرأيت من اتبع إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة " الجاثية 23.

فأفضى بهم ال " البغي " الذي أوقفهم تحت حكم سنن الله المتضمنه في قوله تعالى: " كان الناس أمةواحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه الا الذين أوتوه من مبعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم ". البقرة 213

وقوله ايضاً: " ان الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذينأوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب " آل عمران 13.

فالناس كلهم بدءاً بالمجتمع الأول الذي أقامه آدم أبو البشر ونظمه حسب شريعة الله سبحانه، تفرقوا بعد آدم فـ " بغى " قابيل على هابيل وقتله ثم تتابعت أجيال البشر، أنبياء ورسل يوحدون، و" بغي " يفرق، إلا قلة قليلة ممن زكت ننفوسهم من " البغي". واهتدوا – برحمة من الله وإذنه – الى الصراط المستقيم. ونهضوا ينذرون " البغاة" من عاقبة " الغي " الذي يقترفونه – فمن أطاعهم نجا ومن عصاهم وجد الله سريع الحساب. والصراط المستقيم واحد ابتداءاً من رسالة آدم عليه السلام حتى محمد صلى الله عليه وسلم هو دين واحد " ان الدين عند الله الاسلام " وما سواه هو " البغي" الذي احلته أهواء البشر واختلافاتهم " ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين" آل عمران 85.

والغي الذي تكررت الاشارة اليه والى آثاره المدمرة في آيات كثيرة من القرآن الكريم هو: إدعاء الأفضلية والرغبة في التفوق على الآخرين والاستئثار دونهم بالجاه والمال والمكانه، أي هو عصبية مفرطة تقوض التوازن والاستقامة والعدل في مسيرة الحياة، فهو عصبية أنانية أو عصبية أسرية أو عصبية عشائرية أو عصبية قبليه أو عصبية شعوبية او عصبية قومية أو....او... وغيرها من مظاهر العصبيات التي تستهدف الأفضلية والتفوق والاستئثار بشهوات الدنيا العاجلة وتفضيلها على نعيم الآخرة الآجلة.

ومن الإنصاف أن نقول أن – الأمة الاسلامية – لم تنج خلال تاريخها الطويل من مرض " البغي " فأصابها الى الحد الذي جعلها تتفرق بعد ما جاءها بينات ما وعدها الله من الفتح والمنعة والرقي الحضاري، فاقترفوا " البغي الاسري" و" البغي القبلي " و" البغي الشعوبي" و" البغي القومي " حينما سعت أسر وقبائل وشعوب وأقوام للأفضلية والاستئثار بالخلافة والملك، وكان من نتائج هذا البغي حروب وثورات وفتن اضعفت الامة الاسلامية وقوضت حضارتها.

ولم تتدبر الاجيال الحديثة من المسلمين سنة الله في مضاعفات البغي ولا آثاره في تاريخها وفي مصائر أسلافها الذين مضوا، وإنما راححت تكرر نفس الخطيئة وزادت عليها استيراد مفاهيم " البغي" الأوروبي في السياسة والاقتصاد والتعليم والثقافة والعسكرية والإدارة والفنون والآداب فذاقت وما زالت تذوق ويلات هذا البغي المستورد ونتائجه المدمرة.

ولعلها الفرصة الأخيرة – أمام هذه الشعوب والأقوام المسلمة – فإما ان تتوب الى الله وتستجيب للفئات المؤمنة من الذين هدى الله الى الصراط المستقيم وتسارع الى اجابة دعوتهم لتحكيم كتاب الله فيما هم فيه مختلفون وإما أن تأخذها العزة بالإثم وتستمر في الاستجابة لغوايات والاالدراسية وقنواتها الفضائية وفي اجهزتها وإداراتها المختلفة وتسخر قومياتها في خدمة " أهواء الديموقراطية وقطعانها الضالة " لتجد الله سبحانه وتعالى سريع الحساب.

ولقد وعت الصهيونية أهمية التكامل بين الدين والقومية رغم عدم تدين القائمين عليها ولذلك تمسكت اسرائيل بدينها ومزجته بقوميتها وثقافتها اليهودية ثم ارسلت وما تزال ترسل شياطينها بين صفوف العرب والاتراك والايرانيين والاكراد والامازيق وغيرهم من الشعوب والاقوام الاسلامية ليفرقوا بين الرسالة والقوميات التي خلف بعضها بعضاً في حمل الرسالة الاسلامية والدفاع عن المسلمين وبذلك تمكنت من قتل فاعلية الرسالة والقوميات سواء. وحتى لا يصحوا المسلمون من ضلالهم ويعوا تكامل الرسالة والقومية في حياتهم حرصت الصهيونية والقوى الباغية والمتحالفة معها - في كل مرة تبدو ملامح صحوة اسلامية – على اطفاء هذه الصحوة ثم امداد الشعوب الاسلامية بـ" ملهاة " ايدولوجية، مخلوطة معطلة الفاعلية سيئة الآثار ثم تشكيلها من تراث جاهليات ما قبل الإسلام وأهواء العصبيات المحلية وضلالات الغرب ثم طرحتها تارة تحت عنوان: " القومية " وتارة تحت عنوان " التقدمية " وتارة تحت عنوان " الاشتراكية " وتارة تحت عنوان " العلمانية".

وفي هذه الايام تطرح الصهيونية وحلفاؤها " ملهاة " جديدة تحت عنوان " الديموقراطية وحقوق الانسان " وتزينها بخيلها ورجلها وقنواتها الفضائية وبعثاتها الثقافية وإرسالياتها التبشيرية لاشاعة الفوضى في حياة " الشعوب والأقوام " الاسلامية وإعادة تشكيل عقائدها وثقافاتها ومناهجها التربوية والتعليمية ودساتيرها وقوانينها المدنية والشرعية والادارية ولتستبدل هذه الايدولوجية الجديدة بشخصية الشعوب والاقوام المسلمين وهويتهم التي تشكلت في ظلال الرسالة الاسلامية.

والخلاصة أن أزمة – الامة الاسلامية تتمحور حول ثلاثة أمراض:

المرض الاول: هو انتشار " العصبيات القبلية والطائفية " في داخل كل شعب من شعوبها.

المرض الثاني: استفحال " العصبيات القومية " بين أقوامها.

المرض الثالث: استثمار اسرائيل والقوى المستعمرة لهذه العصبيات لتحقيق مشاريع الهيمنة وبسط النفوذ وسلب المقدرات وتدمير الطاقات والمؤهلات، وعلاج هذه الامراض يكمن في تطوير " فقه سياسي اسلامي " يقوم بثلاث وظائف:

الوظيفة الاولى: تزكية اسر وعشائر وقبائل كل شعب من الشعوب الاسلامية من أمراض " العصبيات الاسرية والعشائرية والقبلية " ومضاعفاتها في الصنمية اجتماعية وثقافة " الاثم والعدوان " ثم رد هذه الاسر والعشائر والقبائل الى مفهوم " الاسرة المتراحمة " و" العشيرة المتراحمة " و" القبيلة المتراحمة " التي تتعاون على " البر والتقوى " في داخلها ولا تتعاون على " الاثم والعدوان " في خارجها.

الوظيفة الثانية: تزكية "شعوب وأقوام" الامة الاسلامية من امراض " العصبيات الشعوبية والقومية " ومضاعفاتها في الصنمية السياسية وردها الى مفهوم الاخوة الايمانية.

الوظيفة الثالثة: هي إعادة التكامل بين ( رسالة الاسلام ) ومفهوم ( قومية الرسالة ) – شعوب النصرة – تكاملاً يحقق " الاخوة الايمانية " ويشيع التعاونن بين مختلف الشعوب والقوميات الاسلامية ويعبئ صفوفها ليتكون منها " الامة الاسلامية" التي تنهض لـ " حمل الرسالة الاسلامية" بقيادة " مجلس الخلفاء " المختارين لتمثيل كل قومية اسلامية لرسم استراتيجيات التعاون بينها والحوار الانساني بين الامة الاسلامية والامم الاخرى.

2- شعوب النصرة: وهذا مصطلح استقرئ من سياسات الرسول صلى الله عليه وسلم الذي قال: " وأوصيكم الانصار فإنهم شعب الاسلام "

ووردت الاشارة اليها عند قوله تعالى: " وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا... " الحجر 213

في الشعب يدلف الشباب أو الدارسين الى شبكة علاقات أوسع من دائرة العشيرة والقبيلة ويتعداها الى " تعارف " و" تمايز " و" تعاون " أكثر اتساعاً وأشد تعقيداً.

وفي هذه الدائرة يحتاج الشاب الى التدريب على القيام بالمسئولية والتعاون في دوائر أكثر اتساعاً وأكثر تشابكاً انطلاقاً من صفة " التعارف والتمايز " المفضية الى التكامل والوحدة تحت ظلال ثقافة التنافس على " البر والتقوى " وتطبيقاتها في مجالات الحياة المختلفة و" القسط " معناه – العدل الجميل المصحوب بالسمو الأخلاقي وفي أفياء أخوة الايمان بالله سبحانه وتعالى ومظاهر التعارف والتمايز في دائرة " الشعب " تتجسد في تطبيقات معقدة متشابكة مثل: عراقة السلالات والحضارات، ولون العرق وثقافة الإقليمية، ولغة القومية وعاداته وتقاليده وتضاريسه الطبيعية وذوقه العمراني وانتاجه الأدبي والفني ومهاراته في البناء والانتاج واسهاماته الحضارية في إطار الامة المسلمة الواحدة.

والتوجيهات القرآنية تقدم مظاهر " التمايز" هذه باعتبارها بعض آيات الله سبحانه الدالة على قدرته وعظمته والمفضية الى طاعته وذلك عند أمثال قوله تعالى: " ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف السنتكم وألوانكم ان في ذلك لآيات لقوم يسمعون " ( الروم 22-23)

وهذا " التمايز " بين الشعوب نعمة من الله المفضية الى عمق " تعاون الشعوب " شريطة أن يفقه الناس آيات الله فيه لأنه يمنح الحياة تنوعاً في مظاهرها، وتجدداً فييي روابطها لهذا " التمايز والتعارف" تكاملا في تبادل العطاء ووحدة في الشعوب:

ولكن جميع هذه المنافع والمزايا التي يحققها هذا " التمايز والتعاون" لا يمكن أن يتحقق الا اذا استرشدت " الشعوب " بتوجيهات القرآن والسنة التي تروي جميع مظاهر " التنوع والتمايز " من الينابيع التي تقرر أن المؤمنين أخوة والتي تفضي الى مزيد من " التعارف " والتعاون.

أما إذا انقطعت هذه " الشعوب" من منابع الاخوة الايمانية فانها تنقلب الى " عصبية شعوبية" تقلب جميع مظاهر التمايز الى تأس في مظاهر الإثم والعدوان واختراع العيوب العرقية وتفخيم المظاهر السلبية وتتبادل الهجاء والتحقير ثم تتحول الى أسباب للتظالم والتنابذ، وبدل أن تتعاون الشعوب على البر والتقوى، فإنها تتعاون على الإثم والعدوان. وهذا هو ما اقترفته شعوب الامة الاسلامية حين ضعفت نظم التربية فيها وانبترت عن أصولها الاسلامية، وانتهى بها الأمر الى اختراع المثالب القومية وتبادل الهجاء الشعوبي وتطبيقاته في الفتن والتمزق والتخالف مع الأعداء ضد بعضها البعض في القضايا الاقليمية والمحافل الدولية، واستوردت فلسفات التربية الاوروبية والامريكية ونظم التعليم المنبثقة عنها والتي فرخت في كياناتهم مفاهيم متناقضة من التعصب العرقي والاقليمي والتوجهات العلمانية – الدنيوية وادعاء الخيرية من الآخرين ووضعت " شعوب" الامة الاسلامية في صدام ضد بعضها البعض ينطبق عليها قوله تعالى: " ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلماً لرجل هل يستويان مثلا الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون " ( الزمر 29)

ولقد فسر الإمام الطبري هذه الآي بقوله:

" هو بين رجال مالكين له متشاكسون – يعني مختلفين متنازعينن – سيئة أخلاقهم، وكل واحد منهم يستخدمه بقدر نصيبه وملكه فيه، ورجل سلماً رجل – أي رجل خالصاً – يعني به المؤمن الموحد الذي عبادته لله، لا يعبد غيره، ولا يدين لشيء بالربوبية سواه".

وهذه هي جناية الشعوب الاسلامية على نفسها – في الوقت الحاضر. فقد ارتدت الى العصبيات الشعوبية التي عاشتها قبل الاسلام، ثم خلطتها بثقافات ونظم مستوردة من الغرب الاوروبي والأمريكي، وشكلت من هذا الخليط نظماً وثقافات متشاكسة، متناقضة، سيئة المنابع، فاسدة المسارات الممارسات، وانتهت بها الى خليط متنافر من الأفراد والجماعات، فاقدة الهوية، تعاني من التمزق والضياع والفتن، كما حدث بين العرب والاتراك واليرانيين والأكراد، وكما يحدث الآن في العراق والسودان والمغرب وأندونيسيا والصومال وغيرها.

3- الأمة المسلمة(1)[[38]](#footnote-38):

الأمة المسلمة هي ثالث مؤسسات التربية السياسية. ففي هذه المؤسسة يجري إعداد الشعوب والقوميات الإسلامية وتنظيم إداراتها على أساس الإيمان، والهجرة، والجهاد، وحمل الرسالة، والإيواء، والنصرة والولاية(2)[[39]](#footnote-39)، مع مراعاة أهمية الاختلاف – وليس الخلاف – في خصائصها وقدراتها ومؤهلاتها في تبادل الغطاء بين شعوبها وقومياتها.

أما تفاصيل ذلك فيه كما يلي:

أ – معنى الأمة:

الأمة مصطلح من المصطلحات التي ولدت بميلاد الرسالة الإسلامية، مثل مصطلح الصلاة والزكاة، والإيمان والإسلام، والكفر والنفاق وهكذا... .

والأمة تعني لغويا: الجماعة من الناس التي تؤم جهة معينة[[40]](#footnote-40).

وأما المعنى الإصطلاحي: فقد تكررت الإشارة إليه في القرآن والحديث ليدل على معان عديدة أهمها:

المعنى الأول: ورد مصطلح ((الأمة)) ليدل أن الأمة هي: إنسان + رسالة.

والرسالة هنا هي مثل أعلى يقدم النموذج الأمثل للجوانب الخيرة في سلوك الفرد والجماعة؛ ليأتم به الناس ويسعدوا. ويقدم الصورة الشاملة للجوانب الشريرة ليتجنبها الناس ويسلموا من آثارها. ويشير القرآن الى هذه الرسالة في مواضع عديدة باسم (( الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر )).

وأما عن الإنسان فقد يكون فردا واحدا، مثل الإشارة إلى إبراهيم – عليه السلام – عند قوله تعالى: انَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَالنحل: ١٢٠.

ومثل قوله – صلى الله عليه وسلم – في زيد بن عمرو بن نفيل: (( يبعث أمة وحده ))[[41]](#footnote-41)؛ لأنه لم يشرك في دينه شيئأ[[42]](#footnote-42).

ومثل قول عبد الله بن مسعود الذي رواه عنه فروة الأشجعي حين قال: كنت جالسا مع ابن مسعود فقال: إن معاذا كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يكن من المشركين. فقلت: يا أبا عبدالرحمن، إنما قال الله: انَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَالنحل: ١٢٠. فأعاد قوله: إن معاذا. فلما رأيته أعاد، عرفت أنه تعمد الأمر فسكت. فقال أتدري ما الأمة وما القانت؟ قلت الله أعلم! قال: الأمة الذي يعلم الخير ويؤتم به ويقتدى. والقانت: المطيع لله، وكان معذ بن جبل – رضي الله عنه – معلما للخير مطيعا لله ورسوله[[43]](#footnote-43).

وقد يكون الإنسان جماعة من العلماء والدعاة الذين يحملون رسالة إصلاحية، مثل قوله تعالى: وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ آل عمران: ١٠٤.

وقد يكون الإنسان طائفة أو قبيلة، له معتقدها ونهجها، مثل قوله تعالى: **{وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ }** [الأعراف: 160] ١٦٠.

وقوله ايضا: وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ الأعراف: ١٦٨.

وقد يكون الإنسان جيلا له فكر واحد ولون حضاري واحد، مثل قوله تعالى: { **تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ}** [البقرة: 134] .

وقوله – صلى الله عليه وسلم – في جيل الصحابة الذي رباه: ((إن لكل أمة أجلا. وإن لأمتي مائة سنة، فإذا مرت على أمتي مائة سنة أتاها ما وعدها الله ))[[44]](#footnote-44).

وقد يكون الإنسان مجموعة متميزة بالتزامها مثل الرسالة ومبادئها، مثل قوله تعالى: كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ. آل عمران: ١١٠.

وبسبب هذا التميز قال عمر بن الخطاب عند ذكر هذه الآية: تكون لأولنا ولا تكون لآخرنا! وفي تفسيرها قال ابن عباس: هم الذين هاجروا من مكة إلى المدينة[[45]](#footnote-45).

وقد يتسع مفهوم الإنسان حتى يشمل الإنسانية كلها إذا اجتمعت على فكرة واحدة ومنهاج واحد، مثل قوله تعالى: وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ يونس: ١٩.

ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون الزخرف: ٣٣.

والمعنى الثاني: فقد ورد مصطلح ((أمة)) ليعني منهاج حياة وما يتضمنه هذا المنهاج من معتقدات وقيم وممارسات وتقاليد، مثل قوله تعالى: **إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ** الزخرف: ٢٢.

والمعنى الثالث: فقد ورد مصطلح ((أمة)) ليعني فترة زمنية، مثل قوله تعالى: و**قَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ** (45) يوسف: ٤٥.

(**لَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ**) هود: ٨.

والمعنى الرابع: حيث ورد مصطلح ((أمة)) ليعني مجموعة من الناس لها مهنة واحدة، مثل قوله تعالى: [**وَلَمَّا وَرَدَ مَاء مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاء وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ**] القصص: ٢٣.

والمعنى الخامس: حيث ورد مصطلح ((أمة)) ليشير إلى المخلوقات الأخرى من الحيوانات والطيور والحشرات التي تنتمي إلى جنس واحد، مثل قوله تعالى: **{وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيْرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُوْنَ}** الأنعام: ٣٨.

ولقد كشف علم الحيوان أن لكل نوع منه لغة تخاطب، وتقاليد في العمل والقيادة، ونمطا في الاجتماع وأسلوبا في الحياة.

ولقد تردد شرح مصطلح ((الأمة)) عند بعض المفسرين، ليشير إلى المعاني التي مرت، فهو عند الطبري: ((الجماعة والقرن من الناس))[[46]](#footnote-46)، وهو ((دين وملة ))[[47]](#footnote-47)، وهو ((الناس كانوا على دين واحد فاختلفوا ))، وهو ((الإمام يقتدى به في الخير ))[[48]](#footnote-48)، وهو ((الأجل المحدود، أو مجيئ أمة وانقراض أخرى ))[[49]](#footnote-49)، وهو ((الطريقة: أي كنتم خير أهل طريقة ))[[50]](#footnote-50).

مما مر كله، يمكن الخروج بالملاحظات التالية حول مفهوم الأمة ومعناه:

الملاحظة الأولى: إن المعنى الاصطلاحي المتكامل للأمة يتضمن عناصر أربعة:

الاول: العنصر البشري، والثاني: العنصر الفكري، والثالث: العنصر الاجتماعي، والرابع: العنصر الزمني. فالأمة مجموعة من الناس تحمل رسالة حضارية نافعة للإنسانية، وتعيش طبقا لمبادئ هذه الرسالة. وتظل تحمل صفة الأمة ما دامت تحمل هذه الصفات. أما حين تفقدها؛ فقد يطلق عليها إسم الأمة ولكنها لن تكون النموذج الإسلامي للأمة تماما، كما يطلق إسم دين على أي دين، ولكن الدين المقبول عند الله هو الإسلام.

والملاحظة الثانية: إن العنصر الرئيس في مفهوم الأمة هو عنصر الرسالة، أي العطاء الذي تقدمه جماعة من الناس إلى بقية مجموعات الإنسانية؛ ليساعد على بقاء النوع البشري ورقيه.

والملاحظة الثالثة: لا يشترط في العنصر البشري – أو المكون الأول للأمة – الروابط الدموية أو الجغرافية، ولا الكم العددي، فقد يكون هذا العنصر فردا واحدا، وقد يكون فئة أو جماعة، أو جيلا أو أجيالا، أو الإنسانية كلها، ما دامت تحمل رسالة، ويوحدها فقه شامل لهذه الرسالات، وتطبيقات فاعلة تنتج عنها نظم وتطبيقات حضارية في ميادين الحياة المختلفة، تسهم في بقاء النوع البشري ورقيه.

والملاحظة الرابعة: إن الأمة تتدرج في نشأتها ونموها، كتدرج نمو الجسد الإنساني، فكما يبدأ الجسد نطفة ثم علقة، ثم يولد طفلا، ثم يصبح صبيا، ثم يقوى شابا، ثم يبلغ رجلا، ثم يعود شيخا، وكما أن الإنسان الكامل هو الذي يبلغ النضج الجسدي والنفسي والعقلي، ويقوم بوظائفه كاملة، فكذلك الأمة تبدأ فردا واحدا، ثم تصير مجموعة صغيرة، ثم قوما شعبا، حتى تنتهي بالدائرة الإنسانية كلها. والامة الراشدة هي التي تبلغ درجة الرشد الحضاري والنوعي، وأبرز شارات هذا النضج هو حمل رسالة الدعوة للخير بمعناه الواسع وإشاعته، والنهي عن المنكر بمعناه الواسع ومحاربته.

والملاحظة الخامسة: إن الأمة الراشدة لا ينال من وحدتها تنوع الشعوب والقبائل فيها، ولا اختلاف الألوان والمهن والأماكن، ما دامت هذه التنوعات لا تخرج عن وظيفتها في تسهيل التعارف، وما دامت ولاءاتها تدور في فلك الرسالة وحدها، ولا تدور في فلك الأشخاص والأشياء، وما دام يعمل هذا التنوع كما يعمل التنظيم الإداري القائم على الوحدة في الغاية والتنوع في الاختصاصات والوسائل.

والملاحظة السادسة: إن الأمة كيان صناعي يمكن بناؤه وهدمه، فهي تخرج إخراجا للقيام بوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهذا الإخراج يقتضي منها بذل الجهد والمقدرات لتطوير المؤسسات التربوية والإدارية؛ للقيام بالدراسة والتخطيط المستمرين لإحكام تطوير الأمة وإخراجها بما تتطلبه وظيفتها حسب حاجات الزمان والمكان، وإلى إخراج هذه المؤسسات كان التوجيه الإلهي، مثل قوله تعالى: **وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ** [آل عمران: ١٠٤ ]

والملاحظة السابعة: إن استمرار الأمة في الحياة مرهون باستمرار حملها للرسالة، وما يتفرع عنها من تطبيقات في مجالات الحياة المختلفة، فإذا ضعفت عن حمل هذه الرسالة أو توقفت فاعليتها أو تقلصت تطبيقاتها، انتهى وجود الأمة، وحل محلها أمة أخرى لا علاقة لها بسابقتها، وإن ربطتها بها روابط الدم والأرض واللغة والثقافة. وهذا ما فعله كبار الصحابة – الذين عايشوا بدء الرسالة وتطبيقاتها – من قول الله تعالى: كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمْ الْفَاسِقُونَ آل عمران: ١١٠.

ولقد كان الخليفة عمر حريصا على تأكيد هذا الفهم والتصور عن الأمة المسلمة حين قال في شرح الآية المذكورة: ((لو شاء الله لقال (أنتم)، فكنا كلنا، ولكن قال: (كنتم) في خاصته من أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ومن صنع مثل صنيعهم، كانوا خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر)).

وفي مناسبة أخرى قال: ﭽ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭼ، تكون لأولنا ولا تكون لآخرنا.

وفي حجة حجها، قرأ هذه الآية ثم قال: يا أيها الناس، من سره أن يكون من تلك الأمة فليؤد شرط الله فيها.

وعن ابن عباس، في تفسير الذين هم خير أمة أخرجت للناس قال: هم الذين هاجروا من مكة إلى المدينة.

وعن أبي هريرة في تفسير الآية المذكورة: كنتم خير الناس للناس، تجيئون بهم في السلاسل، تدخلونهم في الإسلام(1)[[51]](#footnote-51) ليدخلوا الجنة.

والملاحظة الثامنة: إن سعة دائرة الأمة يحددها مدى التواصل والاتصال الذي تحدده تكنولوجيا العصر، فحين كان الإنسان يسير على قدميه ويتواصل مشافهة مع بني جنسه، تحددت دائرة الأمة بالحدود الجغرافية التي أمكنه التحرك داخلها، وحين ركب الحمير والخيل اتسعت الدائرة لتشمل أكثر من قريته، وحين اكتشفت العربات التي تجرها الخيول، ورموز الكلمات والكتابة، ازدادت سعة دائرة الأمة لتشمل القارة، حتى إذا وقفت على عتبة ركوب الفضاء، والتواصل بالتلكس والتليفون والفاكس، رسمت الرسالة الإسلامية للأمة دائرة تتسع للإنسانية كلها.

ويرتبط بهذا التطور الجغرافي – لسعة رقعة الأمة – تطور اجتماعي مواز، يوسع دائرة القيم في كل طور، فينقلها من القيم الأسرية إلى القبلية، ثم القومية ثم العرقية ثم العالمية، وإلى هذا التدرج في الاتساع كانت الإشارة النبوية في أن كل رسول بعث إلى قومه وأنه – صلى الله عليه وسلم – بعث إلى الناس كافة.

ولكن المشكلة في التطور المشار إليه أن البشرية كانت – وما زالت – تعجز عن مواكبته، فتقع في خطأين اثنين:

الأول: إن فئات كثيرة من البشر كانت – وما زالت – تمارس الرفض والحران، فترفض الانتقا لمن قيم طور انتهى أمده إلى قيم طور حل زمنه.

والثاني: إن نوازع الهوى المرتبطة بمصالح أهل المال والسلطان كانت – وما زات – تشوه مفهوم الأمة، فتنقل الرسالة أو الفكرة من المحور إلى الهامش، وتحل محلها روابط الدم أو الوطن أو المصالح المادية، وبذلك يطلق مصطلح الأمة على من لا ينطبق عليه مواصفات الأمة كما حددها القرآن والحديث.

لذلك كان من أبرز مسؤوليات المؤسسات التربوية الإسلامية، أن تقوم في كل جيل بمراجعة المفاهيم المتحدرة من الآباء عن معنى الأمة ومكوناتها وروابطها؛ بغية تجديد المفاهيم الصائبة، وتزكية المفاهيم المتداولة، مما علق بها من نقص أو تشويه.

ب – أثر الثقافة العصبية العربية في تشويه مفهوم الأمة بعد العصر الراشدي:

من الإنصاف أن نقول: إنه كما كان للبيئة المصرية أثرها في انطلاقة

موسى – عليه السلام – فإنه كان للبيئة العربية أثرها في انطلاقة محمد – صلى الله عليه وسلم – وهو أثر له جانبان: جانب إيجابي، وآخر سلبي.

أما عن الجانب الإيجابي؛ فإن البيئة العربية سهلت نجاح الرسول – صلى الله عليه وسلم – في تربية الإنسان المسلم على تعشق المثل الأعلى والتضحية في سبيله؛ ذلك أنها خلت من كثير مما كان في البيئة المصرية من ركام العقائد والثقافة والقيم التي كبلت أفهام أتباع موسى - عليه السلام – ولم يكن في الجزيرة العربية استقرار زراعي وازدهار اقتصادي؛ مما يفرز حياة الترف والتثاقل إلى الأرض، وإنما فرضت البيئة الصحراوية القاسية نوعا من حياة الطوارئ، والاستعداد الدائم للتضحية أمام الصعوبات والأخطار الطبيعية والبشرية القائمة.

أما عن الجانب السلبي؛ فإن قيم العصبية ومحاور الولاء التي تفرزها، لم تكن تصلح بحال للانتقال مع المسلم الجديد إلى المجتمع العالمي الجديد؛ لان هذه القيم والولاءات لا تسمح أبدا بتوسيع شبكة العلاقات اجتماعية إلى ما وراء دائرة الولاء القبلي، وتعتبر أولئك الذين يقيمون خارج الدائرة القبلية أجانب لا ولاء يربطهم بمجتمع القبيلة.

ولذلك شكلت هذه القيم والولاءات العصبية عقبات ضخمة أمام تطبيق روابط الدائرة العالمية التي اتصف بها المجتمع الإسلامي الجديد، وأثرت تأثيرا سلبيا في مستقبل الأمة المسلمة، وحالت دون تطورها ونضج مؤسساتها. وحين كانت قيم العصبية القبلية هذه تضطر إلى التعايش مع قيم الإسلام العالمية، كانت تركز على الأشكال دون الأعمال، وعلى الشعائر الفردية دون المظهر الاجتماعي للعبادة، وتنفق القيم الإسلامية لدعم ولاءاتها العصبية، ولذلك وصف القرآن الكريم أصحاب هذه القيم العصبية بأنهم لَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ التوبة: ٩٧، أي هم غير مؤهلين لفقه القيم التي أنزلها، وإفراز النظم اللازمة للطور العالمي الذي وقفت البشرية على أعتابه، وجاءت قيم الإسلام لترشدهم إلى عبوره.

ولذلك كان التحدي الأكبر الذي واجهه الرسول – صلى الله عليه وسلم – بعد هجرته إلى

المدينة وشروعه في بناء أمة عالمية، يتعايش فيها مختلف الأجناس والأعراق، هو قيم العصبية القبلية. ولقد اتخذت جهوده لمجابهة هذا التحدي مظاهر عدة، منها:

المظهر الأول: هو تزكية أعضاء الأمة الإسلامية الجديدة من قيم العصبية القبلية؛ باعتبارها قيما نتنة بالية لا تصلح لهم بحال، وتنظيم علاقاتهم طبقا لقيم التقوى الملائمة لطور العالمية الجديد.

والثاني: هو التحذير من الردة إلى قيم العصبية القبلية، وإدراج هذه الردة في قائمة الكبائر المخلدة في النار[[52]](#footnote-52).

والثالث: التنبيه إلى دور قيم العصبية في فتن المستقبل، وما ستجره على الأمة المسلمة من كوارث ومذابح ودمار، وهو ما تقدم تفصيلاته الأحاديث النبوية، الواردة تحت كتاب الفتن، في مصنفات الحديث المختلفة[[53]](#footnote-53).

ولذلك كانت تزكية المجتمع المدني من قيم العصبية القبلية، والانتقال به إلى قيم التقوى العالمية، محورا أساسيا من محاور التربية في صدر الإسلام، ولقد ظل التحذير من قيم العصبية أحد العناصر الرئيسة في منهاج الرسول - صلى الله عليه وسلم – إلى أن لخص جهاده ضد الجاهلية العربية في خطبة فتح مكة فقال: (( إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس من آدم، وآدم من تراب ))(3)[[54]](#footnote-54).

ولكن ثقافة العصبية وقيمها، عادت للإمساك بدفة المجتمع بعد الخلافة الراشدة، أي بعد انقضاء جيل الصحابة الذي رباه الرسول؛ الأمر الذي أدى إلى ظهور التناقض بين المبادئ الإسلامية الداعية إلى مساواة الشعوب والأجناس، وبين التطبيقات السياسية واجتماعية التي قسمت المسلمين إلى عرب وموال، وفتحت باب الانقسامات في الأمة المسلمة، بنسبة التراجع الذي توالى من القيم الإسلامية العالمية إلى قيم الشعوبية والقبلية.

ولقد ابتدأت هذه الردة العصبية في الثقافة والقيم، ابتداء من امساك الأمويين بقيادة الدولة الإسلامية، وحلول الملك محل الخلافة – كما يرى ابن تيمية -(4)[[55]](#footnote-55). ثم توالت مضاعفات هذه الردة حتى أفرغت مفهوم الأمة من محتواها الإسلامي، وأحلت محله محتوى العصبيات القبلية والشعوبية، مما نال من وحدة الأمة الإسلامية، وفتح أمامها أبواب الفتن والانقسامات المتتالية.

كذلك حالت هذه الردة للثقافة القبلية والقيم العصبية دون تطور المؤسسات السياسية والإدارية والتشريعية الملائمة لطور العالمية، فحالت دون رسوخ قيم الشورى، والقيادة الجماعية، ومسؤولية الحاكم أمام المحكومين، وأنعشت الحكم المطلق والملكية الاقتصادية المطلقة، والفردية، والارتجال، ولونت أشكال الإعلام والممارسات السياسية على جميع المستويات.

ولقد كان لهذه الردة العصبية آثارها في الشكل الذي اتخذته مؤسسات التربية الإسلامية؛ إذ انحرفت هذه المؤسسات عن هدف إخراج الأمة المسلمة وتطويرها، والارتقاء بمفهومها ومؤسساتها، طبقا للحاجات والتحديات، وحل محل ذلك ظاهرتان:

الأولى: إن مؤسسات التربية الرسمية لم تتوجه لتوليد العلوم والمعارف اللازمة لتنظيم شبكة العلاقات اجتماعية وتطوير مؤسساتها بما يتفق مع الأصول الإسلامية في القرآن والسنة، وإنما زاغت بتأثير قيم العصبيات القبلية

لتركز في مناهجها على ثقافة القبيلة التي توجه للدوران في فلك الأشخاص الأقوياء، ولتبرير ممارساتهم، والإشادة بالمنجزات المنسوبة إليهم.

والظاهرة الثانية: هي تركيز المؤسسات التربوية – التي لا تدور في فلك الدولة – على تربية فرد معطل الفاعلية، ينسحب من تيار الحياة الجارية، ويجسد صورة الدرويش الذي يقف موقفا سلبيا من تيار الاجتماع البشري، ويظل طوال عمره يعاني من الظلم والفاقة، منتظرا الرحيل إلى العدل والنعيم الأخرويين!!.

وكانت المحصلة لذلك كله هي حصر عمل المؤسسات التربوية والعلمية في ((فقه العبادات)) وتكرار نسخه واستظهاره جيلا بعد جيل؛ مما أفرز آلاف المجلدات في فقه الطهارة والحيض والنفاس والطلاق والعدة، بينما لم يزد الفقه المتعلق بالعلوم السياسية وفقه الاجتماع البشري والنظم الإدارية والتشريعية وصلات الحاكم بالمحكوم وتوزيع الثروات العامة والعمل الجماعي عن أصابع اليدين. ومن أمثالها ((الأحكام السلطانية)) للماوردي، مع ما فيه من المآخذ والانتقادات المتعلقة بمحتوياتها التي تبرز إطلاق أيدي أصحاب السلطان، وتعدد القايدات، والاستيلاء على القيادة والمراكز بالقوة وغير القوة

جـ - أهمية إخراج الأمة المسلمة:

الإطار العام الذي يحدد أهمية إخراج الأمة المسلمة، ويحدد مكوناتها هو قوله تعالى: نَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهاجَرُوا وَجاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهاجِرُوا ما لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثاقٌ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (72) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسادٌ كَبِيرٌ (73) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهاجَرُوا وَجاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (74) وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهاجَرُوا وَجاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (75)الأنفال: ٧٢ - ٧٥.

هكذا يبدو واضحا من الآية الأولى ( رقم 72 ) أن الترية الإسلامية لا تتوقف عند إعداد الأفراد المؤنين، وإنما تتخذ من هذا الإعداد وسيلة لهدف آخر، هو إخراج أمة المؤمنين التي يتلاحم أفرادها عبر شبكة من الروابط اجتماعية التي تندرج تحت أسماء: الهجرة، والجهاد، والإيواء، والنصرة، والتي تكون محصلتها النهائية هي الولاية، أي أن يتولى كل عضو رعاية شؤون الأعضاء الآخرين. أما الأفراد المؤمنون الذين يبقون خارج مهجر الأمة المؤمنة، فهؤلاء لا فاعلية لإيمانهم، ولا روابط، ولا ولاية بينهم وبين أمة المؤمنين.

ومع أن الآيات المذكورة أعلاه تتضمن – كما قلنا – أهمية إخراج الأمة المسلمة، وتتضمن المكونات الرئيسة لهذه الأمة، إلا أن الحديث في هذا الفصل سوف يقتصر على أهمية إخراج الأمة المسلمة، بينما يؤجل الحديث عن مكوناتها إلى الباب الذي يليه.

أما مظاهر هذه الأهمية فهي كما يلي:

الأهمية الأولى: هي ما تنبه إليه الآية الثانية ( آية 73 من السورة ) حول الأضرار التي تنجم عن عدم إخراج الأمة المسلمة. وتتمثل هذه الأضرار في ضررين رئيسيين هما:

الضر الأول: هيمنة قيم الكفر في الارض، وإخراج أمة الكفر، حيث لا يقتصر الكافرون على ممارسة كفرهم كأفراد متناثرين، وإنما يجتمعون في أمة يوالي بعضها بعضا. فإذا لم تقم أمة الإيمان؛ فسوف تتولى أمة الكفر القيادة في الأرض، وتهيمن على مقاليد التوجيه والتخطيط والتنفيذ، في كل ما يتعلق بشؤون السلم والحرب سواء.

والضرر الثاني: إن انتقال القيادة العالمية إلى أمة الكافرين، سوف يؤدي إلى استغلال خزائن الله من المقدرات البشرية والمادية استغلالا سيئا، ثم يكون من نتائج هذا الاستغلال السيئ ملء الأرض بالفتن والفساد الكبير: فتن في ميادين السياسة، وفساد في ميادين الاجتماع، وتشيع الصراعات والحروب الداخلية أو الإقليمية أو العالمية، وينتشر الفساد الكبير الذي يتمثل في الانهيارات الأخلاقية، وشيوع التحلل والفواحش، وانتشار الفلسفات والأفكار الهدامة وغير ذلك.

ولو نظرنا في أحداث التاريخ – الذي هو بعض من مظاهر آيات الله في الأنفس – لوجدانا براهين بينة ناصعة لهذا التقرير الذي ساقته الآية عن نتائج إخراج أمة المؤمنين، أو هيمنة أمة الكافرين، فحين أخرجت الأمة المسلمة وأحكمت روابط الولاية فيها، كانت نتيجة ذلك هزيمة أمم الكفر، التي مثلتها آنذاك أمثال فارس والروم. أما حين انحسرت التربية الإسلامية، لتقتصر على إعداد الأفراد المسلمين، الذين يعتزلون الدنيا وينتظرون الرحيل إلى العدل الأخروي، فقد نسي المسلمون – أنفسهم – مفهوم الأمة المسلمة، واختفت مكوناتها من مناهج التربية وأنشطتها، وتفككت الأمة المسلمة القائمة، واحتلت مكانها أمم غير مؤمنة، تسلمت القيادة العالمية، وملأت الأرض بالفتنة والفساد الكبير، وصار المسلم يشد الرحال إلى أمم الكفر، ليتعلم في مؤسسات كيفية إخراج الأمم، وبناء المجتمعات على النمط الذي تحدده له هذه المؤسسات وأهدافها في التبعية والاستعمار، وإشاعة الفتنة والفساد الكبير.

والأهمية الثانية لقيام أمة المؤمنين: هي ما توجه إليه الآية الثالثة (آية 74 من السورة) حول الفائدة والمنافع التي تترتب على إخراج الأمة المسلمة، وهي ثلاث فوائد:

الفائدة الأولى: تجسيد الإيمان في جنسية مميزة، وهوية خاصة، وفي حضارة إسلامية لها ثقافاتها ونظمها اجتماعية، وتطبيقاتها في ميادين السلوك والقيم والعادات والتقاليد الممتدة عبر الزمان والمكان؛ ولذلك وصفت الآية بأن أفراد الأمة المسلمة، المجاهدين المتآوين، المتناصرين في مهجر واحد، هم المؤمنون حقا؛ لأنها لا تتمكن من أن تعيش إيمانها في جنسية متميزة، وتطبيقات اجتماعيةلها ثقافاتها ولغتها ونظمها اجتماعية والاقتصادية والتربوية، ولها قيمها وعاداتها وتقاليدها وأخلاقها. وبالتالي لا تفرز حضارة متميزة تنحدر عبر التاريخ وتشد إليها الرحال، ليتعلم الناس في مؤسساتها التربوية والادارية كيفية الحفاظ على النوع البشري ورقيه. وإنما تذهب جهود هذه الأقليات هدرا في روافد أمة غير مسلمة، ثم تذوب وتختفي بعد جيل أو جيلين؛ ولذلك لن يكون قبول حياة الأقلية إلا ضرورة مؤقتة، حتى ينجح العلم الإسلامي الصائب في إيجاد مهجر تقوم فيه أمة المؤمنين، فإذا قامت، صارت حياة الأقلية رضى بالاستضعاف في الأرض، وظلما للأنفس، ووضعها في بيئات مرهقة للإيمان، تهدد بذهابه والانتهاء بأصحابه إلى عقوبة الله.

ولذلك حدد القسم الثاني من الآية الأولى العلاقة بين الأمة المسلمة والاقليات المسلمة المتناثرة خارج دار الهجرة، بان أفرغ هذه العلاقة من الولاء والولاية، أي عدم المسؤولية عن الاقليات، إلا ما كان من نصرتها إذا تعرضت لاضطهاد ديني من قبل أمم لا تربطها بالأمة المسلمة مواثيق ولا معاهدات.

وإن الباحث ليلمح في هذه العلاقة السلبية بين الامة المسلمة والأقليات المسلمة خلق نوع من الأوضاع القلقة غير المريحة، التي تجبر الأقليات المذكورة على الهجرة، إلى مهجر أمة المؤمنين.

والفائدة الثانية: هي الاستقرار الاجتماعي والاستقرار السياسي المشار إليهما ﭽ لهم مغفرةﭼ. فالمغفرة هي تجنيب الأمة المسلمة عقوبات أخطاء الأمم.

وعقوبات الأمم في القرآن الكريم متنوعة، منها: ثوران الاحقاد الداخلية، أو إشاعة الفتن والحروب في الداخل، أو تسليط الغواة من الخارج:

**قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ** الأنعام: ٦٥.

**{ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا}** [الإسراء: 5].

والفائدة الثالثة: هي الازدهار الاقتصادي المصحوب بالتماسك الاجتماعي والعلاقات الكريمة بين طبقات الأمة وأفرادها، والمحافظة على كرامة الأمة وعلى قيمها وأخلاقها في الداخل، وسمعتها التاريخية في الخارج، فالأمة المؤمنة رزقها رزق كريم، يحفظ كرامات الأفراد رجالا ونساء، فلا تضطرهم لقمة العيش إلى التفريط في كراماتهم وحرماتهم، ولا إلى تجارة الفواحش والمنكر. وهو رزق كريم يحفظ كرامة الأمة التاريخية، فلا يلطخ سمعتها ويصمها بعار الغزو والاستعمار، والتسلط والاحتلال، وهو يحفظ كرامتها الحضارية، فلا يضطرها إلى ممارسة الفضائح، ونقض المواثيق، والتآمر على الأصدقاء، وإيثار المنافع المادية على علاقات الرقي الحضاري. وهو رزق كريم يحفظ كرامة الأمة اجتماعية، فلا تحتاج إلى تقدمة أعراضها ونسائها كراقصات ومغنيات في أماكن اللهو والفاحشة، لتجلب السائحين وطالبي المتعة المحرمة الضارة!

وأخيرا هو رزق كريم يحفظ للأمة المسلمة كرامتها عند الله، ويمنحها كرامة الدرجات العلى في الآخرة، سواء في المنزلة أو في المأوى.

والأهمية الثالثة لقيام أمة المؤمنين: هي ما توجه إليه الآية الرابعة ( آية 75 من السورة) من خلال الإشارة إلى أن الأمة المسلمة هي مجتمع مفتوح غير مغلق. فباب الهجرة إليه مفتوح، والانضمام إليه له شرط واحد فقط هو الإيمان والمشاركة في حمل الرسالة، مع مراعاة روابط الأرحام بين المهاجرين في جميع الأزمان، حتى لا يؤدي اختلاط المهاجرين بدون ضوابط إلى التفكك الاجتماعي، فالله عليم بقوانين الاجتماع السليم وغير السليم وبالنتائج الحسنة أو السيئة.

وبسبب هذه الأهمية – لإخراج الأمة المسلمة – أدرك رجالات الأمة الإسلامية الأوائل أهمية إخراج الأمة المسلمة ومتطلبات العضوية فيها. من ذلك ما قاله عمر بن الخطاب حين قرأ قوله تعالى: {**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ}** آل عمران: ١١٠. قال: (( يا أيها الناس، من سره أن يكون من تلكم الأمة؛ فليؤد شرط الله فيها ))(1)[[56]](#footnote-56).

والأهمية الرابعة لمفهوم الأمة الذي تطرحه التربية الإسلامية، هي أهمية كبرى بالنسبة إلى التربية الحديثة والعاملين في ميادين التطوير التربوي في المجالين الإقليمي والدولي. والغفلة عن هذه الأهمية سوف تكون هدرا كبيرا لمصدر أساسي من مصادر التربية الدولية (Global Education ) التي تتطلع المؤسسات التربوية العالمية إلى بنائها وإشاعتها. ذلك أن مفهوم الأمة يلائم المرحلة الجديدة التي وقفت البشرية على أبوابها ببعثة محمد – صلى الله عليه وسلم – ثم أصبحت معالم هذه المرحلة واضحة جلية في زماننا – زمن سرعة المواصلات والتكنولوجيا – حيث إنهارت مفاهيم القوم (People) والشعب (Nation)، وأخذت الحدود بين المواطن تتهدم، والروابط الدموية تتمزق، واختلطت البشرية اختلاطا شديدا من خلال الأسفار العالمية، والتجارة العالمية، والتبادل الثقافي العلمي، والزواج العالمي، ووجدت المجتمعات الحديثة نفسها بلا روابط دموية ولا روابط جغرافية، ولا بروابط ثقافية واجتماعية. بل إنه لتعاد خلخلة المجتمع الواحد، ثم تشكيل كل منها مرة كل يوم أو كل أسبوع، من حيث الجنسيات والتجمعات التجمعات البشرية، حيث يرحل أناس ويحل آخرون.

في هذه الظروف الجديدة، يجد الإنسان نفسه بحاجة إلى أخوة جديدة، بل أخوة الأسر والقبائل والأقوام، التي تمزقت وتناثر أعضاؤها في أطراف الأرض، وإلى بديل عن الروابط التقليدية التي تعود إلى أطوار الرعي والاستقرار الزراعي، عندما كانت التحركات والعلاقات محدودة بحدود القوم والإقليم.

ومن الطبيعي أن انتهاء فاعلية الروابط التقليدية أدى إلى انتهاء فاعلية القيم والمقاييس والأخلاق التي انبثقت عن هذه الروابط، ووضع البشرية أمام نوعين من الروابط والقيم والمقاييس لا ثالث لهما: فإما العودة إلى علاقات الغابة وطور الكهوف، وإما روابط الأمة الواحدة التي تعيش في قرية الكرة الأرضية الواحدة في ظل عقيدة واحدة وثقافة واحدة. وفي هذه الحال لا تجد البشرية نموذجا لهذا النوع الثاني من الروابط، إلا رباط الأمة المسلمة بمحتوياته الفكرية النفسية، وتطبيقاته اجتماعية التي تتجاوز روابط الدم والأرض والمصالح المادية، وتتجاوب كليا مع حاجات الطور العالمي الذي دلفت إليه البشرية المعاصرة.

الفصل السابع

مؤسسات الإدارة والأمن**[[57]](#footnote-57)**

الأساس الذي يقوم عليه عمل هذه المؤسسات في القرآن والسنة، هو توفير بيئة اليسر التي تهيئ الفرص لتحويل أفكار المثل الأعلى التي تبلورها المؤسسات التي مر ذكرها، إلى تطبيقات عملية، وشبكة علاقات اجتماعية، تكون محصلتها إشاعة ثقافة القسط، أي العدل والتوازن التي توفر للناس الماعون الذي يعينهم على أن يعيشوا دينهم ودنياهم في المعاملات والعبادات والعلاقات والممارسات والولاءات اليومية الجارية في ميادين الحياة المختلفة، ومن الخطورة أن يتناقض عمل المؤسسات الإدارية والأمنية مع عمل مؤسسات التنشئة والتعليم والإرشاد، لأن هذا التناقض يفرز بيئة العسر التي يستحيل فيها ممارسة أفكار الإصلاح وتعاليم الدين، الأمر الذي يفرز الصراع الاجتماعي المهلك والاحباط القاتل، والقنوط المفضي إلى تعطيل فاعلية الإنسان. وهنا تبدو الحكمة من تخصيص مقته تعالى – أي شدة كراهيته – للذين يتحدثون عن أفكار الإصلاح ولا يوفرون لها بيئات التطبيق، ولو كانوا مؤمنين: **ﭽ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﭼ الصف: ٢ – ٣.**

وفي أية بيئة، هناك علاقة طردية بين الممارسات العملية، والأفكار والإرادات النفسية، فإذا حسنت الأولى ارتقت الثانية، وإلى هذا يشير قوله تعالى: **ﭽ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﭼ العنكبوت: ٦٩.**

وفي المقابل إذا ساءت الممارسات، هبطت الأفكار والإرادات. وإلى هذا يشير قوله تعالى **ﭽ ﭹﭺ ﭻﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﭼ المطففين: ١٤**، وهذا ما تأوله الرسول –صلى الله عليه وسلم – حين ذكر أن العبد إذا أذنب نكت في قلبه نكتة سوداء، وأنه إذا لم يستغفر تجمعت النكت وشكلت طبقة الران، الذي هو عمى الفكر واضطراب الإرادة[[58]](#footnote-58).

وحين نتحرى واقع المؤسسات الإدارية والأمنية في القطار العربية والإسلامية، نجد ان أبرز صفات هذا الواقع هو التناقض بين ممارسات هذه المؤسسات وبين الأفكار الإصلاحية التي تبشر بها مؤسسات التعليم والإرشاد، وأن البيئة العامة التي تفرزها مؤسسات الإدارة والأمن قد جرى تخطيطها طبقا لمصالح الشركات الرأسمالية العالمية ووكلائها المحليين؛ ولذلك جاءت مواصفات هذه البيئة كما يلي:

1 – تشييد المدن الحديثة الكبرى – بتوجيه من البنك الدولي – لتكون مستودعات بشرية وأسواقا تجارية، توفر الاستهلاك الغزير لمنتجات الرأسمالية العالمية ووكلائها المحليين.

2 – تدمير الاقتصاد المحلي في الريف والبادية، وسلبهم أراضيهم والقضاء على مواردهم؛ مما دفعهم للهجرة إلى المدن – الأسواق – ليعمل قسم منهم في مكاتب التسويق والاستهلاك، وقسم في أعمال النقل والخدمات والنظافة، وقسم في قوات البوليس التي تحرس مخازن المنتوجات وأمن الأسواق، وقسم يجري تخزينهم في معسكرات الجيش الذي لا عمل له إلا طوابير الصباح، والهتاف بحياة الملوك والرؤساء، وتلميع الذقون والأحذية، وإسكات صيحات المظلومين والجائعين في الداخل، وتأجير مهاراته القتالية – تحت شعار قوات الأمم المتحدة – لإخماد حركات التمرد التي تهدد مصالح الرأسمالية في الخارج(1)[[59]](#footnote-59).

3 – تنظيم التعليم المحلي ليقوم باقتلاع الناشئة في الريف والبادية من ميادين العمل المحلي، وتركهم فريسة البطالة والتسكع في المدن؛ بحثا عن الخدمة في اقتصاد السوق الاستهلاكية.

4 – تنظيم مؤسسات الإعلام والثقافة لترفع شهية الاستهلاك، وتقدم برامج الترويح الساذج عند الجماهير العامة المستهلكة.

5 – تنظيم مؤسسات الإرشاد الديني؛ لتقوم بتلطيف التوتر لدى جماهير العامة والعمال والموظفين، للرضى بأقدارهم والقناعة بفقرهم.

وكانت محصلة ذلك كله أن تحولت الأقطار العربية والإسلامية إلى مستودعات سكانية استهلاكية، يتكدس فيها نوعان من البشر: أقلية مترفة تقوم بدور وكلاء الشركات العالمية، وتقيم في أحياء نظيفة مطرزة بالقصور والفلل والبيوت الفخمة، المحمية بقوانين البناء وبوليس الحراسة. وأكثرية مستضعفة تتكدس في الأكواخ وشقق عمارات الأحياء الفقيرة – القذرة.

وليس هناك من ثقافة تجمع هذه الأكداس البشرية إلا ما كان من إدمان الاستهلاك للمنتوجات الرأسمالية، وترنح الرجال والنساء والولدان في أسواقها ومطاعمها وفنادقها ومتنزهاتها، لمدة 24 ساعة، في حلقات صوفية مادية جديدة نشيدها:

المال الحي المال الأكبر

اجمعوا أكثر استهلكوا أكثر

أكثر أكثر أكثر أكثر[[60]](#footnote-60)

ومن الطبيعي - حسب نظم الرأسمالية الاستهلاكية القائمة التفاوت بين الأجور والنفقات – أن يعجز دراويش الاستهلاك عن توفير الأثمان التي تشبع هذا الإدمان، وأن يلجؤوا إلى الديون وشراء التقسيط، ورهن الرواتب والممتلكات؛ الأمر الذي ينقلهم أفواجا أفواجا إلى رق الرأسمالية؛ ولذلك تتحطم أسرهم وتتقطع أرحامهم، وتتضاعف انهياراتهم الأخلاقية واجتماعية، التي لا تنفع معها التربية ولا المواعظ الدينية ولا أعمال البر والصدقة. وحين تنتهي بهم مضاعفات الاستهلاك إلى امراض التخمة والهم والتوتر، تتلقفهم مستشفيات الرأسمالية وصيدلياتها التي تتقاضى منهم أجورا خيالية، فإذا شفوا عادوا للعمل والاستهلاك في أسواق الرأسمالية... وتبدا الحلقة المفرغة من جديد، ثم لا تجد عينا تبصر او أذنا تسمع أو قلبا يعي المواعظ التي تصيح بقوله تعالى: **ﭽ ﯹ ﯺ ﯻ ﯼ ﯽﯾ ﯿ ﰀ ﰁ ﰂ ﭼ الإسراء: ٢٧!**.

لا تسلني كيف ألفيت المدينة

حانة اللهو ودنيا الضائعين

لقطاء للحضارات الزنيمة

غرهم زيف كوهم الواهمين

اتخذوا القرش إلها للسجود

غير ان القرش رب من سلالات اليهود

كلما قاموا له عند الصلاة

هتك الستر وداس المحرمات

الفصل الثامن

مؤسسة التربية العسكرية

وآخر المؤسسات الخمس وأخطرها، هي مؤسسة التربية العسكرية، وضرورة بنائها على أصالة من الغايات ومعاصرة في الأساليب. أما تفاصيل هذا فهي كلآتي:

إن تنمية المهارات وبناء الأجساد التي تمارس هذه المهارات لا يمكن فصلها عن برامج إعداد العقل العسكري المؤمن، وتنمية الإدارة النبيلة العازمة.

فالفصول الثلاثة تتكامل لتشكل ما يمكن تسميته (( المدرسة العسكرية الإسلامية )) وهي مدرسة لها نظريتها المستقلة في تربية عقل العسكري المسلم، وإرادته ومهاراته الجسدية.

ولقد اختفت هذه المدرسة من واقع التطبيق والممارسة، وانسحبت إلى بطون الكتب التراثية منذ عهد المماليك، ثم أجهز على بقاياها الاستعمار الغربي. وما زالت تحول دون بعثها – القابلية للاستعمار – في مؤسسات التربية العسكرية القائمة في الأقطار الإسلامية الحاضرة. وما لم يحدث التجديد في هذه المؤسسات، ويتوفر لها الأصالة والانتماء في الأهداف والغايات، والنقاء في الوسائل والاتجاهات، والحكمة في استيراد وهضم الخبرات، فإنها لا يمكن أن تؤتي أكلها في النصر والمنعة، وسوف تبقى الجيوش في الأقطار الإسلامية أداة للتآمر الاستعماري، الذي يربيها في معاهد أوروبا وأمريكا على الإستئساد على الصديق، والنكوص أمام العدو، ويحتفظ بها رصيدا عسكريا لخدمة أطماع الدول الكبرى، تحت شعار الأمم المتحدة.

ولتحقيق الأصالة العسكرية المنشودة، لا بد من الوقوف على التوجيهات القرآنية للعلوم العسكرية، وهي توجيهات تميز المدرسة العسكرية الإسلامية عن نظائرها عن الآخرين. ولا بد من استقصاء هذه الأصول القرآنية في السنة الشريفة، وفي زمن الراشدين من الخلفاء. وجميع هذه المصادر غنية بالأصول العسكرية المميزة. ومن هذه الأصول ما يلي:

أولا – نبالة الغايات وصوابية الأهداف:

فالمدرسة العسكرية المسلمة مؤسسة تربي عقل الجندي وإرادته على أن الجهاد في سبيل الله معناه إقامة القسط بين الناس، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومحاربة الفتن والفساد الكبير. أما المدارس العسكرية الأخرى فغايتها تحقيق شهوات النفس في المال والجاه، لدى الأفراد الأقوياء والطوائف والأمم التي ما زال تراثها ملوثا بالمقولة الإبليسية: (( أنا خير منه ))، وما تفرزه من شهوة التسلط والاستضعاف.

اما الاكثرية فان اقتال عندها مجرد وظيفة يمارسها الجندي مقابل اجر معين ولذك تجده مجرداً من الاخلاق والعواطف الانسانية والارادة حالنبيلة يقاتل ولا يدري لمذا يقاتل؟ انه يقاتل فقط لارضاء قياداته التي تدفع له الاجر وهذه هي السمة الغالبة لجيوش الاستعمار الحديث ومدرسته العسكرية

ثانيا: تواضع المنتصر ورحمته:

والمدرسة العسكرية المسلمة تربي جندها على فهم معين خلاصته أن النصر من عند الله والله هو المنتصر والذين ينصرهم الله يحققون " الغلبة " على عدوهم ولذلك اينما وردت كلمة النصر في القرآن الكريم تأتي مقترنة بلفظ الجلالة " الله " وتعرضه كأنجاز الهي، أما البشر فتنسب لهم " الغلبة " مثل قوله تعالى في سورة الروم " غلبت الروم في ادنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنيين " ( الروم ).

ولذلك تربي المدرسة العسكرية المسلمة الجند على التواضع عند النصر، والاستغفار من خطرات النفوس في ادعاء هذا النصر، وعلى الرحمة عند الظهور على الأعداء، وفي ذلك قيمة وخلق إسلاميان، يمنعان العسكرية الإسلامية من إرسال الضابط والجندي المسلم للتربية في معاهد المدرسة العسكرية الحديثة، التي تلقن خريجيها حين يظفرون بالأعداء وينتصرون عليهم، أن يدخلوا ديارهم ليشربوا نخب النصر خمرا تتضارب كؤوس شاربيه، وينتصبون طغاة تغنيهم القيان وتحيط بهم الراقصات، وتصدح في آذانهم المعازف. ولقد أطلقها القرآن الكريم قوية مدوية في آذان الفئة المؤمنة التي انتصرت في بدر، أن تحذر تقليد البطر القرشي حين خرج على رأسه أبو جهل وهو ينادي: والله لا نرجع حتى نرد بدرا ونقيم ثلاثا ونشرب الخمر، وتغنينا القيان والمعازف، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا، فلا يزالون يهابوننا أبدا.

نعم لقد نهى القرآن الكوكبة المؤمنة عن تقليد البطر القرشي، وأرسى قواعد الزحف عند أمثال قوله تعالى: **ﭽ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﭼ الأنفال: ٤٧ – ٤٨.**

ونهى المسلمين ألا يتصاعد بهم البطر ويطلقوا شعارات التشفي وعبارات الفخر وأفعال الإنتقام عند دخول ديار الأعداء منتصرين فاتحين، واستبدلهم بذلك استغفارا من رؤية حظوظ النفس، وأن يحمدوا الله متجردين من حمد القادة والزعماء ونسبة النصر إليهم. **. ﭽ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﭼ النصر: ١ - ٣ .**

وهذا ما تأوله رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهو يدخل مكة حانيا رأسه حتى بلغت لحيته سرته، وعيناه تذرفان الدمع، مسبحا باسم الله مستغفرا، حتى إذا التقى بجموع قريش المهزومة الذليلة، قال لهم: (( إذهبوا فأنتم الطلقاء ))، لم يعتقل الخصوم، ولا ارتكب المجازر البشرية، ولا هتك الحرمات. ولا صادر الممتلكات وانما أطل عليهم مداعباً: " ما تظنون اني فاعل بكم؟ قالوا: اخ كريم وابن اخ كريم فقال: اذههبوا فانتم الطلقاء.

وهو كذذلك ما استلهمه عمر بن الخطاب وهو يقدم إلى الشام بعد فتحها، ويرفض البرذون واللباس الجميل الذي قدمه له المسلمون الفاتحون؛ مجاراة لقيم السكان المقيمين، ويكتفي بدراعته المرقعة، ويدخل القدس ماشيا وخادمه راكب.

وهذا أيضا ما اقتدى به صلاح الدين وهو يسترجع القدس ممن خاضت ركب خيولهم في ساحات الاقصى بدماء المصلين والعلماء، وطلبة العلم، والعباد المجاورين.

ثالثا – تحذير الجندي المسلم من موالاة الذين سماهم القرآن الكريم الآلهة الأنداد:

والأنداد – عند ابن عباس وابن مسعود وأبي بن كعب – هم القادة والزعماء الذين أقاموا من أنفسهم أندادا لله، فأجبروا الجند والرعية على طاعتهم فيما يغضب الله، وأحلوا الحرام، وحرموا الحلال. والأنداد هم أحد ثالوث الولاء الذي ابتدعته المدارس العسكرية في الغرب والشرق، ولوثت عقل الجندي بالشرك، وضربت إرادته بالعمى.

رابعا – تحرص العسكرية الإسلامية على أن تكون الطاعة للقائد أو الزعيم ما أطاعا الله سبحانه وتعالى، فإن عصيا الله فلا طاعة لهما على الجندي المسلم:

وهذا يعني وضوح الهدف عند القائد والمقود. وهذا أصل من أصول العسكرية الإسلامية عبر عنه الصحابي المجاهد خالد بن الوليد حين جاء قرار العزل عن القيادة في معركة اليروموك فقال قولته المشهورة: أنا لا اقاتل من أجل عمر، لقد قضت على هذا النموذج من الجندية المؤمنة المدرسة العسكرية التي استوردتها المؤسسات العسكرية في الأقطار الإسلامية من نظائرها في الغرب، التي سنت نظرياتها العسكرية من تراث الرومان وتقاليدهم في عبادة الأباطرة الأحياء والأموات.

وكان من نتيجة هذا الاستيراد ان الغيت الغايات الإلهية، وألغيت الإرادة العازمة عند الجندي، ورسخت ثقافة القطيع، ونمت إرادة قتالية عمياء تقاتل تحت أي لواء، ويلبس أية قبعة مهما كان لونا ما دام صاحبه يدفع الجر، ويوفر الخدمات الطبية وتعليم الأبناء، مقابل البطش بالأمة إذا تظاهرت منادية بالتصدي لأعدائها حين يجوسون خلال الديار ليدمروا ما علوا تدميرا، وليستبيحوا الحرمات، ويقتلوا الأطفال والنساء والشيوخ، ويقتلعوا الأشجار، ويدمروا المقدسات.

خامسا – تحرص العسكرية الإسلامية على ان يكون ذكر الله هو صيحة الإنطلاق للجهاد، حين يعلن النفير وتبدأ المواجهة مع العدو؛ ليستمد الجندي عزيمته من الله؛ فتسمو أهدافه وترسخ مرابطته:

بعكس المدرسة الحديثة التي تهبط بإرادة الجندي بأصوات القينات والمعازف التي تسبح آلهة الأنداد وصنمية العصر، ومن خلال التدريبات التي تصرخ به – صباح مساء – أن يدور إلى اليمين أو الشمال فيدور، وأن يسير إلى الأمام أو الوراء فيسير، وأن ينبطح على الأرض فيستجيب، ثم تكون المحصلة النهائية لهذه الممارسات هي إلغاء العقل والإرادة، وتسليم الجندي بالمقولة التي تلقى على الدوام في سمعه: (( نفذ الأمر، ثم اسأل لماذا )). والجندي ينفذ الأوامر ولا يسأل لماذا!!! .

سادسا – تحرص الجندية الإسلامية على موالاة الإسلام والجهاد تحت لوائه، والحذر من الجهاد تحت أي راية سواه:

وهذا أصل رئيس في أصول العسكرية الإسلامية، وهو يناقض ولاء الجندي الحاضر للشرعة الدولية، التي تحوله إلى جندي مرتزق يؤجر مهاراته القتالية، ويلبس الخوذة الزرقاء، تحت قيادة ضباط وقادة يعملون لحساب الأمم والشعوب العاملة على إشاعة الفتنة، ونهب ثروات الأمم الأخرى واستعمارها، تحت ستار (( قوات الأمم المتحدة )) و((محاربة الإرهاب )) و((المحافظة على السلم العالمي )) وأمثال ذلك من التبريرات، والخادع من الشعارات.

هذه نماذج للأصول العسكرية الكائنة في القرآن والسنة، والحاجة ماسة لاستنباط هذه الأصول ومثيلاتها، ثم تجسيدها في نظرية تربوية إسلامية، لها برامجها ونظمها وعلاقاتها، إذا أردنا إصلاح مؤسساتنا العسكرية، وتربية جيوش واعية، قلوبها مستنيرة، وإرادتها مخلصة، أشداء على الأعداء، رحماء بالأمة، أذلة على المؤمنين، أعزة على الكافرين، يجاهدون في سبيل الله ولا يخشون لومة لائم.

الفصل التاسع

الملاحظات والتوصيات

أ‌- الملاحظات

بعد هذا الاستعراض لمؤسسات التربية الإسلامية يمكننا الخروج بالملاحظات والتوصيات التالية:

- ظرورة تعرف العاملين في المؤسسات التي مرت بثقافة الأخلاق والاحتشام التي جعلها الاسلام محور سلوك الانسان في هذا الكون، وبدون هذه المعرفة فإن الانسان يفقد ابرز المزايا ويرتكس الى العوالم التي تليه:

1- ثقافة العري " سمة " المجتمعات الظالمة: والسبب الذي يحيل – ثقافة العري – وعدم الاحتشام عاملاً من عوامل انهيار المجتمعات وسقوط الحضارات، هو أن ثقافة العري والسياسات الظالمة توأمان متلازمان. فأينما انتشرت سياسات الظلم وصاحبتها – ثقافة العري وعدم الاحتشام – ومن هنا ندرك مغزى قوله صلى الله عليه وسلم: " صنفان من أهل النار لم أرهما: رجال يضربون الناس بسياط كأذناب البقر، ونساء كاسيات عاريات مائلات مميلات، على رؤسهن كأسنمة البخت، لا يدخلن الجنة ولا يشممن رائحتها، وإن رائحتها على بعد كذا وكذا " والاسنمة جمع سنام وهو الارتفاع البارز في ظهر الجمل، والبخت نوع من الجمال اسنمتها كثيفة الشعر. والسؤال الذي نطرحه: ما الحكمة التي جعلت الرسول صلى الله عليه وسلم يذكر الرجال الذين يضربون الناس بالسياط الى جانب النساء الكاسيات العاريات اللاتي يكشفن رؤوسهن ويمشطن شعورهن بتسريحات تبدو كأسنمة البخت؟ ولمذا لم يذكر الى جانب الضاربين بالسياط رجال يغشون الناس أو يعتدون عليهم أو يخونون أماناتهم؟ الجواب هو أن كلاً من الفريقين المشار إليهما في الحديث النبوي الشريف أداة من أدوات الأنظمة الظالمة والدكتاتوريات التي تتسلط على المجتمعات وتنتهي بها إلى الخراب والسقوط فالمجتمعات التي تقع فريسة للظلم ينقسم الناس فيها إلى ثلاثة أقسام: الأول، أقلية واعية تعي خطورة الظلم وتنكر سياساته وتدعو لمعارضته، وتستعصي على إغراءات الظالمين الذين يعمدون الى اعتقال المعارضين وتسليمهم الى القساة من الشرطة والعساكر ليسجنوهم بالزنازين، ويجلدوهم بالسياط التي تشبه - فعلاً – اذناب البقر. والقسم الثالث أكثرية غافلة عما ينزل بها من مظالم، لاهية بشهواتها، تتبع كل ناعق وترقص لكل عازف وتستجيب لأية فتنة. هذه الأكثرية تعمد الانظمة الظالمة إلى إغراقها بـ" ثقافة العري " التي تجند النساء الكاسيات العاريات المائلات للطيش والهوى. المميلات للشباب بالتبرج والإثارة، وللشابات بالأسوة السيئة تحت أسماء براقة مثل: نجمة الشاشة، راقصة الباليه، عارضة الازيا، ملكة الجمال، مهرجانات الرقص الشعبي، فرق الدبكة ألى ما هنالك من عناوين ظاهرها الشهرة والرفعة والغنى وباطنها الفساد والإنحطاط وتجارة الرقيق الابيض وتشييع أجواء الفاحشة تحت يافطات جذابة مثل: حقوق المرأة، التحرر، القدمية، بينما يكون الهدف الحقيقي هو إلهاء الأكثرية عن المظالم التي ترزح تحتها، والتحديات والاخطار التي تحيق بها.

2- معنى السلوك وحلقاته: أما " السلوك" فإن الاستعمالات اليومية لهذا المصطلح قد ضيقت معناه حتى انحسر في الحلقة الأخيرة من حلقاته وهي حلقة الممارسة الظاهرية التي يقوم بها الفرد في شئونه الخاصة المألوفة. غير أن النظر في" آيات الكتاب" وفي " آيات الأنفس" التي كشفت وما زالت تكشف عنها الدراسات والانسانية والنفسية والتربوية تقدم محتوى اشمل وأوسع لمصطلح "السلوك " هذا، ذلك أن النظر العميق والبحث الدقيق في سلوك الانسان يكشفان عن أن السلوك يتكون من خمس حلقات هي: حلقة الخاطرة التي تولد من تزاوج الطبيعة الانسانية مع مؤثرات البيئة المحيطة، ثم يتلقف العقل هذه الخاطرة لينجب منها في ضوء معقولاته العقدية والثقافية الحلقة الثانية: حلقة الفكرة تزاوجها الحلقة الثالثة: حلقة الارادة، ثم تقوم أدوات الصياغة اللغوية في ضوء مهاراتها لتصنع منها الحلقة الرابعة: حلقة التعبير، ثم تتحرك الاعضاء في ضوء مهاراتها الجسدية لتنجب الحلقة الخامسة: حلقة الممارسة العملية والقرآن القرآن يجمع هذه الحلقات الخمس: في قوله تعالى" يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون " ( الانعام 3). فالسر هو جزء السلوك الذي يتم داخل النفس الانسانية ويشمل حلقات الخاطرة والفكرة والارادة، والجهر هو الصياغة اللغوية لهذا السلوك والمشتملة على الحلقة الرابعة، والكسب هو الممارسة العملية أو الحلقة الخامسة آلتي تقوم بها أعضاء الانسان الخارجية، ومن هذا التوضيح القرآني والتطبيق النبوي الكامل لمصطلح السلوك وتحديد مساراته الداخلية والخارجية تأول صلى الله عليه وسلم توجيهه القائل: " إن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب (1 البخاري، الايمان، مسلم، المساقاه ). ومنه كذلك استلهم العلماء المسلمون تعاريفهم لمصطلح السلوك كتوتحديد ميادينه ومناهجهم في تهذيبه وتزكيته. من ذلك ما كتبه المحاسبي في كتاب – الرعاية لحقوق الله -، وما كتبه أبو حامد الغزالي في إحيائه، وما كتبه ابن تيمية في المجلد العاشر الذي يحمل عنوان – السلوك – من فتاويه الكبرى، وما كتبه ابن قيم الجوزية في – مدارج السالكين – وأمثالهم كثير. وليكون السلوك محتشماً تحتاج مؤسسات المجتمع كافة أن تتكامل في نشاطاتها للعمل على تزكية الحلقات الخمس المكونة للسلوك وتزكية البيئة المحيطة بها. وهذا يتطلب تكامل المؤسسات الدينية والتربوية واجتماعية والفنية والادارية والعسكرية والشرطية لان في تتكاملها جميعاً بروز " ثقافة الاحتشام " و" السلوك المحتشم ".

3- تزاوج المبدأ الأخلاقي مع الذوق الجمالي في السلوك المحتشم: والسلوك المحتشم في القرآن الكريم هو السلوك الذي يتزاوج فيه المبدأ الأخلاقي مع الذوق الجمالي. ومثال ذلك قوله تعالى: " فاصفح الصفح الجميل". ( الحجر 85 ) وقوله: " فاصبر صبراً جميلا " ( المعارج 5 )، وقوله ايضاً " واهجرهم هجراً جميلا" ( المزمل 10 )، فالصفح الجميل والصبر والهجر صفات تجسد المبدأ الأخلاقي بينما تجسد صفة " الجميل " الذوق الجمالي ويذكر ابن تيمية أن الصفح الجميل صفح بلا عتاب، والصبر الجميل صبر بلا شكوى والهجر الجميل هجر بلا أذي(1). والواقع أن الأزمة التي تعاني منها المجتمعات الانسانية في الوقت الحاضر هي الفصام بين مؤسسات المبدأ الأخلاقي المتمثلة في دور العبادة ومعاهد التعليم والمساجد والمطبوعات والمنشورات الدينية والأخلاقية وبين مؤسسات الذوق الجمالي المتمثلة في معاهد الفنون والتمثيل السينمائي والآداب والنحت وغيرها حيث تكتفي الأولى بالتركيز على المبدأ الاخلاقي وتغفل عن الذوق الجمالي، وعن هذه الغفلة تنتج صور التعصب والتزمت ومضاعفاتها السلبية، وتكتفي الثانية بالتركيز على الذوق الجمالي وتطبيقاته الفنية وتنسى مزاوجته مع المبدأ الأخلاقي، وعن هذا النسيان تنتج صور الانفلات والانحلال وثقافة عدم الاحتشام. والحقيقة أنه لا مفر من تكامل مؤسسات المبدأ الاخلاقي مع مؤسسات الذوق الجمالي اذا اردنا شيوع سلوك الاحتشام في الفكر والعاطفة والممارسة. والسبب أن السلوك هو محصلة التفاعل بين الفرد والبيئة المحيطة في لحظة معينة. وهذا أمر يوجب على القائمين على السلوك والاحتشام مراعاة ثلاثة أمور هي: الفرد، البيئة، اللحظة الزمنية التي يحدث فيها التفاعل بين الفرد والبيئة المحيطة، وهذا يعني خطأ المقولة التي تقول: اذا صلح الفرد صلح المجتمع، وإنما لا بد من صلاح الفرد وصلاح شبكة العلاقات القائمة في البيئة المحيطة ومؤسساتها، ومن تزاوج الاثنين يولد السلوك الصالح والثقافة الصالحة والحضارة الصالحة، أو نقول لا بد من احتشام الفرد واحتشام البيئة ومن تزاوج الاثنين يولد السلوك المحتشم والحضارة المحتشمة والثقافة المحتشمة.

6- عدم الاحتشام في المجتمعات المعاصرة وأزماته:

واما عن الامر الثاني وهو الوقوف على ما آلت إليه ممارسة عدم الاحتشام في المجتتمعات المعاصرة فان ابرز ما يميز البنية السكانية للمجتمعات المعاصرة هو انهيار الحدود بين الثقافات، وتسارع وسائل الاتصال والمواصلات ودخول البشرية في طور جديد تتصف الحياة فيه بالإقامة الموقوته، والجوار الموقوت وانقلب التجانس الثقافي والاجتماعي في المدينة الواحدة والبناية الواحدة الى " خليط " مضطرب من الثقافات والاعراف والتقاليد والقيم، ووجد الانسان المعاصر نفسه بين أكداس بشرية عارية من الهوية والانتماء والروابط إلا ما كان من روابط المصالح المتذبذبة الموقوته والشهوات الملتهبة. الأمر الذي أحال المدينة الحديثة – كما يقول عالم البيئة رينه دوبوا – الى حديقة حيوانات بشرية اقفاصها الشقق السكنية. لقد أفرزت هذه التغيرات المضطربة في غالب مجتمعات العالم أزمات ثلاث: الأولى اغتراب الانسان عن ذاته، والثانية انحسار مفهوم الثقافة في ما يعرف باسم ثقافة الانتاج والاستهلاك، والثالثة اتصاف السلوك الفردي والجماعي بالشذوذ وردود الفعل التلقائية (1). أما عن الازمة الاولى في الفلسفات والعلوم النفسية والتربوية التي قامت عليها الحضارة الحديثة تنكرت – لهوية الانسان – التي فطر الله عليها والتي تقرر ان الانسان خير بالفطرة وأنه قابل للتسامي حتى منزلة أحسن تقويم، وقابل للهبوط حتى الارتكاس في عالم الحيوان أو درك اسفل سافلين. وفي المقابل طرحت هذه

(1) Alvin Toffle- صلى الله عليه وسلم -، futu- صلى الله عليه وسلم -e shock، (new Yo- صلى الله عليه وسلم -k، bantam co 1981

الفلسفات – هوية بديلة – خلاصتها أن الصراع من اجل البقاء هو الغاية الكبرى للحياة، وأن الانسان هو ثمرة نجاح الحيوانات الاقوى في هذا الصراع الدائر بين سلسلة الحيوانات التي تصارعت وتطورت كما تقول الدارونية اجتماعية Social Da- صلى الله عليه وسلم -winism وعلى ان الانسان مجموعة من الشهوات والرغبات كما تقول – الفردوية F- صلى الله عليه وسلم -uedism -لقد كانت النتيجة التربوية لهذه الفلسفات انها افرزت نظريات بررت عمليات الاحتكار والجريمة والاستغلال بين الافراد والطبقات داخل المجتمعات وعمليات الغزو والنهب والاستعمار والحروب التي شنتها – وما زالت تشنها – المجتمعات الغربية ضد المجتمعات الاخرى، كذلك افرزت نظريات سياسية ونظم اجتماعية وتربوية بررت جميع اشكال الانحلال والفاحشة وأقامت لها المؤسسات والمباريات والنشاطات. وعملت على اشاعتها في المجتمعات الاخرى تحت شعارات وعناوين من أمثال: مجتمع الرفاهية، حرية الانسان، وحقوق المرأة، وحقوق الطفل،(2) وأما عن الازمة الثانية، وهي انحسار مفهوم الثقافة في ما يعرف باسم – ثقافة الانتاج والاستهلاك – فقد كانت نتيجة طبيعية للازمة الاولى، حيث انحسر مفهوم الثقافة في الانتاج المادي واستهلاك المنتوجات. واعتبر التقدم الانساني هو زيادة نمو هذا الانتاج والاستهلاك وهو ما يطلق عليه شعار التنمية، كان لانتشار هذه الثقافة مضاعفات سلبية في البيئات اجتماعية والثقافية والفنية والطبيعية والسياسية، حيث ضرب التلوث هذه البيئات كلها، الأمر الذي جعل عالما شهيرا من مؤسسي علم البيئة هو رينيه دوبوا يركز جهوده في كتبه المختلفة على التحذير من انحسار مفهوم الثقافة في حاجات الإنسان الجسدية وإهمال حاجاته النفسية والعقلية. ومن اقواله في هذا المجال " في كل مكان لا نستعمل الأرض مأوى وحاضنة للثقافة الإنسانية وإنكا كمصدر للاستغلال وسوقا للبيع والشراء... ان جميع المجتمعات التي تتأثر بحضارة الغرب تلتزم في الوقت الحاضر – توراة التنمية – وتترنح في دائرة تشبه – حلقات الدراويش – ونشيد هذه الدائرة:

(2) Hoftade- صلى الله عليه وسلم -، - صلى الله عليه وسلم -ichae- صلى الله عليه وسلم -d، SocialDa- صلى الله عليه وسلم -winism (Boston: AHA، 1955

انتجوا أكثر

لكي تستهلكوا أكثر!

ثم لكي تستهلكوا أكثر!

والإنسان لا يحتاج أن يكون عالم اجتماع لكي يدرك ان هذه فلسفة مختلفة مجنونة[[61]](#footnote-61).

واما عن الأزمة الثالثة فهي أيضا بعض إفرازات قيام العلاقات الأنسانية على فرضية الصراع وحصر إبداعات الانسان في الانتاج والاستهلاك فقد صار الانسان المعاصر في المدينة الحديثة التي تقيم في وسطها بنوك الاحتكارات واسواق الصراعات المالية بدل المساجد والمؤسسات الثقافية، ويتكدس فيها ملايين البشر الذين يديرون الصراع والتنافس في هذه المؤسسات بدل المؤمين الذين يوثقون الروابط ويرتقون بالعلاقات، يعاني مما يسمسه علماء الاجتماع وعلماء النفس الاحساس بالوحدة والعزلة النفسية - والإحساس بالإحباط وخيبة الأمل، والإحساس بالعجز، والمعاناة من عدم الانسجام، ومن مظاهر الشذوذ في الحياة والسلوك[[62]](#footnote-62).

وكانت المحصلة النهائية لهذه الأزمات الثلاث هي " عري " إنسان العصر عريا ابدي له سوأته في التصورات الفكرية والإرادات النفسية والممارسات الجسدية، وسوء استعمال التكنولوجيا المتقدمة التي أفرزها العلم الحديث (3)[[63]](#footnote-63). وهذه ظواهر جعلت عشرات المفكرين – منذ أواخر القرن العشرين وحتى السنوات الأولى من القرن الحالي – يطلقون صيحات الإنذار بالخطر القادم الذي يحمل في جعبته انتقاص انسانية الانسان وانعدام الأمن وشيوع الفوضى في العلاقات الإنسانية. من ذلك ما كتبه ابراهام ماسلو ورينه دوابوا وتيودور روزاك ودنيال بل وفرتز شوماخر وبولوفريز ونعوم تشومسكي وديفيد بربل وستفن كوفي وغيرهم. غير أن أصوات هؤلاء العلماء والمفكرين لا تلبث ان تتبخر وسط الضجيج الإعلامي والثقافي والفني الذي تديره مؤسسات الرأسمالية وتسخره لمزيد من إشاعة – ثقافة الإنتاج والإستهلاك – خاصة بعد انفرادها بالهيمنة العالمية وتبنيها سياسات العولمة التي لا تلتزم بشريعة ربانية ولا قيم انسانية.

7- الأهمية الحضارية لرسالة صاحب السمو في الاحتشام والسلوك

وبعد هذا الإستعراض لأهمية الاحتشام ومكانته في القران والسنة، ولخطورة فقدان هذه الفضيلة في مجتمعات الحضارة الحديثة، يتبين لنا أهمية التوجيه الذي أرسله صاحب السمو الشيخ سلطان بن محمد القاسمي والقائل: إن المتع النظيفة والعلاقات السليمة الامنة بين ممثلي الثقافات والأجناس المختلفة إنما تولد في البيئات التي تسترشد بنسامي الإنسان وفضائله التي أرسى دعائمها الانبياء والرسل وجسدها المرشدون المصلحون.

لقد استوعب سموه بحكم ثقافته المستنيرة وخبراته الواسعة. معنى الاحتشام واّثاره بالمعنى القراّني الواسع المؤصل لهذا الاصطلاح، وأحاط ببنية المجتمعات المعاصرة بإيجابياتها وسلبياتها، ثم راح يستلهم التوجيهات الإلهية والسنن التاريخية والقوانين اجتماعية والنفسية والتربوية وهو يوجه مجتمع الشارقة للاستفادة من افضل معطيات العلم الحديث والتكنولوجيا الحديثة، في اللوقت الذي رفع لواء الاحتشام ليكون رسالة يرفعها المواطن والمقيم، وعطاءً وحضارياً ينتفع به الوافد والزائر.

ولم يقف سموه عند التوجيهات النظرية والمراسيم الرسمية وإنما أقام للإحتشام الجميل مؤسسات التعليم الجامعي ومؤسسات رعاية الطفولة، ومؤسسات رعاية الأسرة، ومؤسسات إرشاد الرأي العام، ثم وجه الى هذه المؤسسات رسالته في الاحتشام والسلوك لتكون دستورا يشحذ الهمم ويوحد الأهداف وينسق بين الجهود والنشاطات، ثم يكون من ثمار اعمال هذه المؤسسات بروز الفرد المحتشم، والأسرة المحتشمة، والمدرسة المحتشمة، والجامعة المحتشمة، والإعلام المحتشم، والمدرسة المحتشمة، والسوق المحتشم، والشارع المحتشم، والمتنزه المحتشم، والمسابح المحتشمة. والأمل كبير أن تستلهم هذه المؤسسات هذه المسؤولية فترفعها رسالة عالمية وتقدم ثمارها عطاءً حضارياً.

8 – الفتاة المسلمة وريادة الإحتشام والسلوك ولابد للفتاة المسلمة أن تكون في الصف الأول الذي يرفع هذه الرسالة وأن تقدم نكوذج المرأة القوية – الفاضلة الذي جسده النساء الصحابيات من امثال فاطمة بنت الخطاب، وأم حبيبة بنت أبي سفيان، وأسماء بنت ابي بكر، وأم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، ودرة بنت أبي لهب، وسعدى بنت كريز، والشفاء بنت عبدالله، وام سلمة الأنصارية اللاتي سابقن الى رجال المؤمنين في الهجرة والجهاد في الوقت الذي حافظن فيه – كل المحافظة – على سلامة الأسرة، وتسامي الإحتشام ورفعة السلوك. والسمات المميزة لهذا النموذج – نموذج القوية الفاضلة – ثلاث هي: الإحالة بعلوم غايات الحياة ووسائلها. التزام المبدأ والتضحية في سبيله. تعشق الإحتشام ولفضيلة.

ولتحمل الفتاة المسلمة المعاصرة هذه الرسالة الحضارية فإنها تحتاج الى وقوف الرجل المسلم إلى جانبها لتجاهد- فكريا واجتماعيا وثقافيا - من أجل القضاء على نموذج المرأة الفاضلة – الضعيفة التي أفرزتها مجتمعاتنا في بيئات الجمود والامية والعصبيات المتزمتة. وهذا النموذج يتصف بصفات ثلاث هي: الجهل أو جزئية العلم بغايات الحياة ووسائلها. التقليد والإحتكام الى ما يقوله الناس. أثر البيئة في الاحتشام أو عدمه. ولتتصدى لنموذج المرأة القوية – غير الفاضلة الذي صدرته الحضارة الغربية وما زالت تصدره. وهذا نموذج يتصف بثلاث صفات هي: العلم بوسائل الحياة دون غاياتها. مشايعةالاتجاهات الدنيوية وتطبيقاتها. عدم الاحتشام وحصر الفضائل بالمتع الحسية.

وتزداد أهمية هذا الدور المقترح للفتاة المسلمة المعاصرة حين نرى الهجمة الكاسحة التي تشنها العولمة الحاضرة لتحويل المرأة في العالم كله الى سلعة تسويقية وترفيهية في مراكز التجارة الدولية وأسواق الإنتاج والإستهلاك.

والأمل كبير أن تكون بشائر هذه الطليعة النسوية المحتشمة – عقليا ونفسيا وجسديا – قد أشرقت في أفاق الشارقة من خلال الجهود والنشاطات المباركة الجارية في أندية الفيتات والمجلس الأعلى لرعاية الأسرة وغيرهما من المؤسسات النسائية العاملة تحت إشراف سمو الشيخة حرم صاحب السمو الحاكم حفظهما الله بحفظه وتولاهما بولايته.

ودعاؤنا إلى الله العلي القدير أن يتم نعمته على سموه وان يمد في عمره ويقر في عينيه بثمار مشروعاته وأن يجعل ماّله أن يظله بظله يوم يظل السبعة الذين وعدهم بظله واولهم " إمام عادل " إتخذ من الاحتشام بيئة ومن العدل منهجا.

ب‌- التوصيات

1- ظرورة البحث في الطرق والاساليب العملية التي كانت تلد في ضمير الفرد المسلم رجلاً أو امرأة الذي يستعمل ثقافة الاحتشام في جميع مظاهر سلوكه ولا ينتظر حتى توجهه المؤسسات التي ترى أهمية الاحتشام

2- لا بد من النظر في تاريخ المرأة المسلمة وبلورة الاطوار والمراتب التي كانت تتدرج فيه الفتاه حتى تصبح امراة كاملة النضج والمسؤليات

3- التحرر من جميع المفاهيم الغربية التي وفدت الى مؤسسات التربية الاسلامية من خلال بعض مؤسسسات التربية الاسلامية نفسها، ومواجهة المربين العاملين في هذا الميدان من خطورة هذا الاتجاه الذي اجمع العالم على فساده.

الفهرس

مقدمة الكتاب

الفصل الأول: أهمية البحث في مؤسسات التربية الإسلامية

الفصل الثاني: الأطر العامة لمؤسسات التربية الإسلامية كما يوجه إليها فلسفة التربية الاسلامية

الفصل الثالث: مؤسسات التنشئة اجتماعية

1- مؤسسة الأسرة

أ‌- معنى الأسرة

ب‌- تكوين الأسرة المسلمة في القرآن والسنة

جـ- نموذج المرأة الصحابية

د- تطبيقات تاريخية لنموذج المرأة المسلمة

2- مؤسسة العشيرة

3- مؤسسة القبيلة

الفصل الرابع: مؤسسات التربية والتعليم

1- مؤسسة الكتاتيب ودور القرآن

2- مؤسسة العلوم المهنية والطبيعية

الفصل الخامس: مؤسسة المساجد

1- معنى المسجد

2- رسالة المسجد

3- أنواع المساجد

أ‌- المساجد العظام

- المسجد الحرام

- المسجد النبوي

- المسجد الأقصى

ب‌- المساجد الجامعة

جـ- المساجد الفرعية

4- وظائف المسجد في العصر الحديث

5- لجنة المسجد

الفصل السادس: مؤسسات التربية السياسية

1- قوم الرسالة

2- شعوب النصرة

3- الأمة المسلمة

الفصل السابع: مؤسسات الإدارة والأمن

الفصل الثامن: مؤسسة التربية العسكرية

الفصل التاسع: مؤسسة القضاء والحسبة

الفصل العاشر: الخاتمة والملاحظات والتوصيات

1. سورة المائدة: آية 48 [↑](#footnote-ref-1)
2. ابن منظور، لسان العرب، باب الراء، ج 4 [↑](#footnote-ref-2)
3. سورة القصص: آية رقم 12 [↑](#footnote-ref-3)
4. سورة هود: آية رقم 72 [↑](#footnote-ref-4)
5. جلال الدين الرومي، المثنوي، الكتاب الأول، ترجمة محمد عبد السلام الكفافي، بيروت: المكتبة العصرية 1966 رقم 2109، أو رقم 5313 ص 292. [↑](#footnote-ref-5)
6. مسند الإمام أحمد [↑](#footnote-ref-6)
7. سورة القصص: آية 26 [↑](#footnote-ref-7)
8. سورة طه: آية 124 [↑](#footnote-ref-8)
9. ابن حجر، الإصابة في أخبار الصحابة، جـ1، ص 228 [↑](#footnote-ref-9)
10. سورة الحجرات: آية 13 [↑](#footnote-ref-10)
11. رواه البخاري ومسلم [↑](#footnote-ref-11)
12. سورة الاحزاب: آية 6 [↑](#footnote-ref-12)
13. سورة الشعراء: آية214 [↑](#footnote-ref-13)
14. سورة التوبة: آية 24 [↑](#footnote-ref-14)
15. سورة المجادلة: آية 22 [↑](#footnote-ref-15)
16. سورة الحجرات: آية 13 [↑](#footnote-ref-16)
17. ابن ماجة، السنن، جـ2، حديث رقم 3949 [↑](#footnote-ref-17)
18. البهتان: الكذب على الشخص في وجهه [↑](#footnote-ref-18)
19. المصدر نفسه [↑](#footnote-ref-19)
20. د.جواد علي – المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام جـ 6 ص 376 – 377 [↑](#footnote-ref-20)
21. مجموعة من المجلات الغربية التي تناقش الموضوع نقاشاً كبيراً [↑](#footnote-ref-21)
22. Kathleen P. Bellett، & Margaret D. Le Compt، The Way Schools Work، New York، Longman Press 1995 ). [↑](#footnote-ref-22)
23. انظر مثلاً مجلة Home Education Magazine Jan – Feb 1997، Vol. 14 P.O.Box 1083 Nonasket، Washington 98855

    أو مجلة Practical Home Schooling Magazine، Jan –Feb 1997. P.O.Box 1250 Fenton، Mo، 63026 – 1850. ) [↑](#footnote-ref-23)
24. للوقوف على أفكار ودراسات هؤلاء المختصين، راجع كتاب ((فلسفة التربية الإسلامية)) أو أهداف التربية الإسلامية، أو مناهج التربية الإسلامية للمؤلف. [↑](#footnote-ref-24)
25. هذه و ما بعدها من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية في (( مناقب الشام و أهله )) ص:77-78 [↑](#footnote-ref-25)
26. المنار المنيف ص:93، و انظر تعليق الشيخ عبدالفتاح أبوغدة رحمه الله عليه. [↑](#footnote-ref-26)
27. قاعدة في زيارة بيت المقدس لابن تيمية، ضمن ((مجموعة الرسائل الكبرى )) ( 2/57). [↑](#footnote-ref-27)
28. قاعدة في زيارة بيت المقدس، ضمن ((مجموعة الرسائل الكبرى )) ( 2/57). [↑](#footnote-ref-28)
29. السابق ( 2/63). [↑](#footnote-ref-29)
30. (( المجموع )) (27/351 -352). [↑](#footnote-ref-30)
31. هذه و اللتان بعدها من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية في (( مناقب الشام و أهله )) ص:77-78، و هي ثابتة في السنة الصحيحة، و لم أرد التطويل بالاستدلال عليهما، فلتنظر في مظانها [↑](#footnote-ref-31)
32. قاله شيخ الإسلام - كما في (( المجموع )) (27/258)- و انظر (27/351) ففيه زيادة. [↑](#footnote-ref-32)
33. (( المجموع )) (27/351). [↑](#footnote-ref-33)
34. الجواب الصحيح (5/204). [↑](#footnote-ref-34)
35. الجواب الصحيح (5/207). [↑](#footnote-ref-35)
36. ينظر: سفر التثنية، الإصحاح 1:33-3. [↑](#footnote-ref-36)
37. المنار المنيف ص:94. [↑](#footnote-ref-37)
38. للوقوف على شرح مفهوم الأمة المسلمة بشكل مفصل، راجع كتاب ((الأمة المسلمة: مفهومها، مقوماتها، إخراجها )) وهو كتاب وضع لفتح الباب أمام نظرية سياسية تعرض مفهوم الأمة المسلمة ومكوناتها، والعلاقات التي تنظم شعوبها في الداخل وعلاقاتها في الخارج. [↑](#footnote-ref-38)
39. لشرح هذه الروابط، راجع كتاب ((الأمة المسلمة )) للمؤلف. [↑](#footnote-ref-39)
40. القرطبي، التفسير، ج2، ص127. [↑](#footnote-ref-40)
41. رواه الحاكم في مستدركه، كتاب معرفة الصحابة، ذكر مناقب عبدالله بن الزبير، وذكر مناقب سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل. [ز] [↑](#footnote-ref-41)
42. القرطبي، التفسير، ج2، ص127. [↑](#footnote-ref-42)
43. الطبري، التفسير، ج14، ص1920. [↑](#footnote-ref-43)
44. كنز العمال، ج14، ص193، نقلا عن الطبراني في الكبير. [↑](#footnote-ref-44)
45. الطبري، التفسير، ج4، ص43-44. [↑](#footnote-ref-45)
46. الطبري، جامع البيان، ج1، ص3، القاهرة، مكتبة الحلبي، بلا تاريخ، ص563. [↑](#footnote-ref-46)
47. الطبري، المصدر نفسه، ج25، ص60-61. [↑](#footnote-ref-47)
48. الطبري، المصدر نفسه، ج25، ص334-336. [↑](#footnote-ref-48)
49. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج2، تفسير آية 128 من سورة البقرة، ص127. [↑](#footnote-ref-49)
50. الطبري، التفسير، ج4، ص46. [↑](#footnote-ref-50)
51. الطبري، التفسير، ج4، ص43-44. [↑](#footnote-ref-51)
52. صحيح البخاري، باب الفتن. صحيح مسلم، باب الإمارة، مسند أحمد، ج1، ص409، 430. سنن النسائي، كتاب البيعة، وكتاب الزينة. [↑](#footnote-ref-52)
53. الجامع الصغير للسيوطي، رقم 13. [↑](#footnote-ref-53)
54. ابم هشام، ج4 القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية، بلا تاريخ، ص41. [↑](#footnote-ref-54)
55. ابن تيمية، كتاب قتال أهل البغي، ج35، ص19 – 20. [↑](#footnote-ref-55)
56. الطبري، التفسير، ج4، ص43-44. [↑](#footnote-ref-56)
57. انظر مثلا:

    Home Education Magazine، Jan-Feb 1997، Vol. 14، No. 1، P، O. Box 1983، Nonashet، Washington، 98855.

    أو مجلة:

    P- صلى الله عليه وسلم -actical Home Schooling Magazine، Jan-Feb، 1997 P.O.Box 1250 Fenton، Mo، 63026 – 1850. [↑](#footnote-ref-57)
58. ترجمة لمعاني حديث نبوي رواه الترمذي والنسائي. [↑](#footnote-ref-58)
59. في مقابلة مع رئيس وزراء عربي سابق، أجرتها صحيفة الخليج الإماراتية عام 1997، ذكر هذا الرئيس أن نسبة المستغل من أراضي بلده هي 3% ثلاثة بالمائة فقط. [↑](#footnote-ref-59)
60. حين انتقلت من القرية وشاهدت هذا الإدمان الاستهلاكي ومضاعفاته في المدينة، كتبت آنذاك: [↑](#footnote-ref-60)
61. - صلى الله عليه وسلم -ene Dabos، so Human An Animal، PP. 139-140 [↑](#footnote-ref-61)
62. ماجد عرسان الكيلاني، اهداف التربية الإسلامية، ص 224 [↑](#footnote-ref-62)
63. Ab- صلى الله عليه وسلم -aham Maslow، Education in A Dynamic Society، 1972، PP. 60-64 [↑](#footnote-ref-63)